موقف الإبراهيمي من الطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر

د. محمد زرمان(*)

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة باتنة – الجزائر.

ملخص البحث:

إن الابراهيمي قد أعلن ثورته العارمة على التصوف، ورفضه رفضا قاطعا، بسبب صدوره عن فلسفات أجنبية، وانحرافه الخطير عن منهج القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح، وممارسته للابتداع والانحرافات الأخلاقية، وسقوطه في متاهات الكفر والإلحاد.

وحتى ظاهرة التصوف التي ظل أصحابها ملتزمين بأحكام القرآن والسنة، ولم ينجرفوا مع تيار الفساد لايستسيغها الإبراهيمي، ولا يعترف بها كظاهرة صحية في الحياة الإسلامية، لأنه يؤمن إيمانا جازما أنه لا يمكن أن يوجد بديل للحياة الروحية السليمة المتزنة، المعتدلة التي عاشها النبي الكريم وأصحابه، والتابعون من بعدهم، وكانت كل جهوده – في هذا المجال – منصبة على محاربة الطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر، باعتبارها امتدادا للمذاهب الصوفية القديمة في كثير من الممارسات الخاطئة، والانحرافات العقدية، والأفكار الضالة، ثم بسبب تفريقها للشعب الجزائري واستغلالها البشع له، وأخيرا سقوطها في أحضان الاستعمار الفرنسي الذي حولها إلى أدوات عميلة تخدم أهدافه ومطامعه.

وطرح الإبراهيمي – في مقابل ذلك كله – البديل الإسلامي الذي يتمثل في الصلاح الشرعي، القائم على الالتزام بالكتاب والسنة، والاقتداء بسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، الذين مثلوا هذه الصلاح في أرقى صوره، فكانوا خير الأمم كما وصفهم الله سبحانه وتعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

والحق، أن موقف الإبراهيمي من الطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر – والذي يكاد يكون صورة صادقة لموقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين – نلمس فيه بعض القسوة والشدة والمبالغة، وهي تكاد تكون ميزة من ميزات أسلوبه في الكتابة، لكننا إذا قيمنا هذا الموقف في إطاره التاريخي وسياقه الحضاري سنجد أن هذه المبالغة والقسوة كانت ضرورية جدا؛ لأن تأثير الصوفية في المجتمع الجزائري إبان هذه المرحلة كان شديدا، ولا تمكن مواجهته إلا بمثل هذا النوع من الأسلوب.

مقدمة:

شكلت الطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر تحديا خطيرا وكبيرا في وجه الحركة الإصلاحية الحديثة منذ مطلع هذا القرن، واستنفذت منها جهدا كبيرا بذل على مستويات عديدة، سواء الفردي منها أو الجماعي، وكان لكثير من العلماء المصلحين مواقف مشهودة في مواجهتها، وكشف انحرافها، وبيان ضلالها وابتعادها عن تعاليم الكتاب والسنة، قصد تخليص الشعب الجزائري من طغيانها الروحي، وتأثيرها السلبي.

ونحسب أن من أشهر هؤلاء: العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩ – ١٩٦٥) الذي بذل كثيرا من الجهود النظرية والعملية لمواجهة الانحرافات الطرقية بكل أشكالها وأنواعها، وهو يعد بذلك نموذجا حيا للعديد من العلماء المصلحين الذين قاوموا الظاهرة البدعية مقاومة شديدة، ورفضوا وجودها في المجتمع الجزائري، ودعوا صراحة إلى العودة إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة كما جاء بها القرآن الكريم وبلغها الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي اعتقادنا: أن المعركة التي قادها الإبراهيمي وإخوانه ضد الطرق الصوفية المنحرفة كانت تاريخية وحاسمة، بالنظر إلى المكانة المتميزة التي كانت تحتلها في أوساط الشعب الجزائري، وأن كلّ مابذل من جهود في هذه السبيل للقضاء على نفوذها وإسقاط هيبتها المزعومة، وقدسيتها الموهومة قد أثر بشكل مباشر وقويّ في تحرير أفراد الأمة من قوة طاغية كانت تشدّها إلى الوارء، وتكرّس بؤسها، وتطيل زمن معاناتها، وفي تفعيل دورها النضالي، وفي دفع الحركة الوطنية إلى الأمام، وفي تصعيد الصراع بينها وبين الاستعمار الفرنسي، ليصل إلى ذروته، ويضع الشعب في خط المواجهة التاريخية مع عدوه الحقيقي، وهو الهدف الاستراتيجي الذي كانت تسعى إليه كلّ الحركات الوطنية الجزائرية، سواء الثقافية منها أم السياسية.

وقد دفعنا إلى الكتابة في هذا الموضوع الرغبة في التعرف إلى موقف الإبراهيمي من الطرق الصوفية المنحرفة باعتباره أحد المصلحين الكبار الذين عالجوا هذه الظاهرة، واهتموا بها كثيرا، ويكاد يكون موقفه تعبيرا صادقا عن

موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منها، ثم إنه – في رأينا – موضوع جديد، لم يحظ إلى الآن بدراسة وافية، سواء أكان ذلك على المستوى الأكاديمي كرسائل الماجستير أو الدكتوراه، أو على مستوى البحوث العلمية المنشورة في الدوريات المتخصصة، كما أن الرغبة في استجلاء حقيقة ودور الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري خلال النصف الأول من القرن العشرين، ومحاولة قراءة هذه المرحلة التاريخية قراء ةً حضارية جديدة كان – أيضا – من أهم الدوافع لكتابة هذا البحث.

فلماذا احتل هذا الموضوع كلّ هذه الأهمية في فكر الإبراهيمي؟ وكيف نظر إلى التصوف عموما وقيّم تجربته؟ وماهي الأسباب التي دفعته إلى مواجهة الطرق الصوفية المنحرفة؟ وكيف عالج هذا الموضوع؟ وهل وفق في هذه المعركة التي دخلها؟ وهل استطاع أن يقدم البديل المناسب؟ وما قيمة هذا البديل في ميزان النقد؟ وإلى أي حدّ يعبر موقفه عن موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟.

ومما لاشك فيه: أن الإجابة عن هذه الإشكالات ستكشف عن طبيعة موقف الإبراهيمي من الطرق الصوفية المنحرفة وأبعاده المختلفة، وتسهم في توضيح رؤية الحركة الإصلاحية الحديثة في الجزائر من هذه القضية.

وفي هذا الإطار سنقدم – في البداية – نبذة عن حياة الإبراهيمي ودوره في الإصلاح، ثم نبين مظاهر النفوذ الطرقي الواسع في الجزائر، ونعرض بعد ذلك لموقفه من التصوف عموما والطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر خصوصا، وبعدها نتطرق إلى أهم الأسباب التي دفعته إلى هذه المواجهة، وفي الأخير نتحدث عن الخطة البديلة التي طرحها في مقابل التصوف وقيمتها في الميزان النقدي.

وقد اعتمدنا في معالجة هذا الموضوع على المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم أساسا على استقراء جميع القضايا والأفكار التي حفلت بها كتابات الإبراهيمي الخاصة بالطرق الصوفية المنحرفة وتحليلها، لاستخلاص الأسس التي يقوم عليها موقفه منها، واعتمدنا كذلك على المنهج التاريخي كمنهج فرعي

يفيدنا في معرفة الظروف الزمانية والمكانية المؤثرة في كتاباته، ومدى انعكاسها عليه وعلى أفكاره ورؤاه.

أولا : الإبراهيمي حياته ودوره في الإصلاح

يعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩ – ١٩٦٥) علما بارزا من أعلام الجزائر الأفذاذ، ورمزا عظيما من رموز الإصلاح فيها، وأحد أبنائها الأبرار الذين أفنوا أعمارهم في خدمتها والذود عن كيانها الحضاري.

ولد في إحدى مدن الشرق الجزائري في عائلة مشهورة بالتقوى وحب العلم، يعود نسبها إلى إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى(١).

تداولت هذه العائلة طلب العلم والتعليم لمدة تزيد عن خمسة قرون. وفي أحضانها نشأ الإبراهيمي، فأتم حفظ القرآن الكريم وهو في التاسعة من عمره، ثم عكف على حفظ متون الفقه واللغة والنحو، وبعدها دواوين فحول شعراء المشرق والمغرب. وقد حباه الله حافظة عجيبة، فاستوعب علوما كثيرة في سن مبكرة، أهلته لأن يتصدر لتدريس الطلاب بعد وفاة عمه وهو لم يتجاوز حينئذ الرابعة عشر من عمره(٢).

وفي عام ١٩١١ م غادر الجزائر – خفية – فرارا من قانون التجنيد الإجباري الذي سنته السلطات الاستعمارية الفرنسية، متوجها إلى المدينة المنورة، ومرّ في طريقه بالقاهرة التي أمضى بها ثلاثة أشهر. وفي الحجاز أقبل على حلقات العلم والمكتبات العامة والخاصة، يوسع بها آفاق معارفه، ويستكمل زاده العلمي(٣).

غير أنه اضطر إلى مغادرة المدينة المنورة عام ١٩١٧ باتجاه دمشق بعد

---

(١) هو إدريس بن عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. دخل المغرب عام ١٧٠ هـ فارا من موقعة (فخ) التي كانت بين العباسيين والعلويين. وإليه ترجع أنساب الأشراف الحسنيين في المغرب و الجزائر.

(٢) الإبراهيمي، "أنا". الثقافة. ع٨٧. ماي – جوان ١٩٨٥ م. ص١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦.

قيام ثورة الشريف حسين بن علي بالحجاز. وفي الشام تعرف إلى كوكبة مختارة من علماء دمشق وأدبائها: أمثال محمد بهجة البيطار، وعبد الحكيم الطرابلسي، وجودت المارديني، وقاسم ورضا القاسميين، وسعيد الغزي، وعبد القادر المبارك، وغيرهم(٤). وجمعته بهم روابط روحية وثقافية متينة وفيها تبوأ مركزا اجتماعيا مرموقا، حيث دعته حكومة الأمير فيصل للتدريس بالمدرسة السلطانية التي كانت الثانوية الوحيدة آنذاك في سوريا(٥)، ورغب إليه بعض الأعيان أن يجلس بالمسجد الأموي لإلقاء بعض الدروس فقبل.

وفي عام ١٩٢٠ عاد إلى الجزائر استجابة لنداء الوطن، وبدأ عمله الإصلاحي الذي كان الشيخ عبد الحميد بن باديس(٦) قد سبقه إليه منذ عام ١٩١٣م، واستمر في ذلك إلى أن تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام ١٩٣١ م، والتي كان الإبراهيمي أحد العلماء البارزين الذين قادوا مسيرتها الإصلاحية، حيث انتخب نائبا لرئيسها عبد الحميد بن باديس، ثم رئيسا لها بعد وفاته عام ١٩٤٠.

ونشط من خلال منصبه هذا – في مجالات عديدة – فأسس المدارس والمساجد والنوادي، وعرفت حركة التعليم العربي الحر على عهده ازدهارا كبيرا(٧)، وشكلت – بحق – تحديا خطيرا للإدارة الاستعمارية والتعليم الفرنسي، مما أدى إلى تصعيد الصراع بين الحركة الوطنية والاحتلال.

---

(٤) الإبراهيمي، عيون البصائر. ش.و.ن.ت. الجزائر. ص٦٤٩.

(٥) الإبراهيمي، "أنا". الثقافة. ع٨٧. ص١٨.

(٦) عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ – ١٩٤٠ م) هو رائد النهضة العربية الحديثة في الجزائر، سليل أسرة عريقة في المجد، مشهورة بالجاه والثراء العريض، تعلم في مسقط رأسه، ثم في جامع الزيتونة بتونس، ثم عاد إلى الجزائر، حيث تصدر للتدريس في الجامع الأخضر، لمحاربة الجهل والبدع والطرقية المنحرفة، أصدر عدة جرائد كان لها دورٌ هام جدا في نهضة الجزائر، ترأس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفسر القرآن الكريم كله تدريسا خلال خمسة وعشرين سنة، وكون أجيالا جزائرية متحررة فكريا، حملت بعده راية الثورة التحريرية الكبرى.

(٧) تركي، د. رابح. التعليم القومي والشخصية الوطنية.ش.و.ن.ت. الجزائر. ١٩٧٥ م. ص٢٠٦ – ٢٠٧.

وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، حكمت عليه السلطات الاستعمارية بالنفي إلى الجنوب الجزائري لمدة ثلاث سنوات[٨]، لم يلبث بعدها أن عاد إلى مباشرة مهامه في الجمعية. غير أنه سرعان ما سيق إلى السجن العسكري في شهر مايو ١٩٤٥ بتهمة التحريض[٩] على مظاهرات ٨ ماي ١٩٤٥ م[١٠]. وبعد الإفراج عنه استأنف عمله الاصلاحي، و أعاد إصدار جريدة " البصائر " التي توقفت أثناء الحرب، و التي كانت غرة لامعة في جبين الصحافة العربية في الجزائر إبان الاحتلال، والتي توقفت أثناء الحرب، وكانت هذه الجريدة من أرقى الجرائد في الشمال الافريقي خصوصا، والوطن العربي عموما، إذ كان يشرف هو بنفسه على كل دقيقة وجليلة فيها، وهو من هو في العلم والأدب والبلاغة، وقد عبّر عن هذه المنزلة الرفيعة التي تبوأتها البصائر بقوله : «فالبصائر هي مجلى البيان العربي بهذا القطر، وهي حارسة الهدى المحمدي بهذا القطر، وهي المؤتمنة على الفضائل الشرقية بهذا الوطن، في وقت أجلب فيه الاستعمار بخيله ورجله على هذه الثلاثة»[١١].

وفي عام ١٩٥٢ م انتدبته الجمعية ليكون سفيرها إلى البلدان العربية للتعريف بها، وطلب المساعدة لقبول الطلبة الجزائريين في معاهدها العليا وجامعاتها[١٢]. وعندما اندلعت ثورة التحرير الكبرى في أول نوفمبر ١٩٥٤ م اتصلت به قيادة جبهة التحرير الوطني، وكلفته بالاتصال بالزعماء العرب

---

(٨) بوالصفصاف، عبد الكريم. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. دار البعث قسنطينة. الجزائر. ط١. ١٩٨١ م، ص ٢١٢.

(٩) الإبراهيمي، في قلب المعركة. دار الأمة. برج الكيفان. الجزائرط١. ١٩٩٤ م ص٢٢٥.

(١٠) في يوم ٨ ماي ١٩٤٥ م خرج الشعب الجزائري في مدن: سطيف، قالمة وخراطة للاحتفال بانتهاء الحرب العالمية الثانية، ومطالبة السلطات الاستعمارية بتنفيذ وعودها بمنح الاستقلال للجزائر، مكافأة لما قدمه أبناؤها من تضحيات في صفوف الجيش الفرنسي. غير أن قوات الاحتلال قابلت هذه المظاهرات السلمية بوابل من الرصاص، ثم تحولت المواجهات إلى مجزرة بشعة، اشتركت فيها القوات البرية والبحرية والجوية، وأسفرت بعد أيام عن وفاة ٤٥ ألف جزائري.

(١١) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج٣ ش.و.ن.ت. الجزائر. ص١١٠

(١٢) الإبراهيمي، " أنا ". الثقافة. ع٨٧. ص٣١.

المسلمين للتعريف بالقضية الجزائرية، والحصول على التأييد المادي والمعنوي لها[١٣]. فنشط في هذا المضمار نشاطا كبيرا وبذل جهودا جبارة لإيصال صوت الثورة الجزائرية إلى تلك البلدان، وظل كذلك إلى أن نالت الجزائر استقلالها. فعاد إليها عام ١٩٦٢ م، وأمّ بها أوّل صلاة جمعة[١٤]، ثم لزم بيته بعد أن هدّه الإعياء وأجهده المرض، وفي يوم الخميس ٢٠ مايو ١٩٦٥ م أسلم روحه لبارئها بعد أن ناهز السادسة والسبعين من عمره.

كان الإبراهيمي أحد فطاحل العلماء الأفذاذ، مفسرا، فقيها، أديبا، شاعرا، لغويا، خطيبا مصقعا، شهد له معاصروه بعلو كعبه في علوم كثيرة، واعترفوا له بالفضل وسعة العلم، وأحلوه المكانة اللائقة به حين انتخبوه عضوا في المجامع العلمية في كلّ من دمشق وبغداد والقاهرة. ويكفيه شرفا أنه حمل على عاتقه مهمة إحياء اللغة العربية، وحماية الدين والوطن في الجزائر في فترة حرجة جدا من تاريخها، أشرفت فيه هذه المقومات الحضارية على الاندثار تحت الضربات الصليبية الاستعمارية.

ثانيا : النفوذ الطرقي في الجزائر

كانت الطرق الصوفية في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هي التي تمثل السلطة الدينية في البلاد، وقد آلت إلى حالة مزرية من الانحطاط العقدي والتخلف العلمي بعد أن ركدت الحركة الفكرية، وساد الجمود والخمود في الأوساط العلمية، وأصبحت هذه الطرق تقدم صورا مشوهة وممسوخة للدين، مما أدى إلى انتشار البدع والخرافات بشكل واسع وإلى انحراف المفاهيم العقدية، وغلبة العقلية الخرافية الأسطورية، وإلى إشاعة الركود والتكاسل والتواكل والرضى بالواقع البائس بين الناس، والاستسلام لمصائب

---

(١٣) رابح، تركي. " البشير الإبراهيمي في المشرق العربي " – مجلة الأصالة. الجزائر. ع٨. س٢. ١٩٧٢. ص٢٥٩.

(١٤) بن قينة، عمر. " البشير الإبراهيمي مصلحا وثائرا ". مجلة العربي. ع٢٥٠. ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م. ص٤٧ – الكويت.

الدنيا في انتظار معجزات الأولياء، وكرامات المشائخ التي ستحقق الآمال، وتغير الأحوال، ببركة الأضرحة والقباب التي يحرصون على زيارتها، والطواف بها وذبح القرابين عندها، والتوسل بأصحابها.

وقد تشكلت معظم هذه الطرق أثناء الوجود العثماني في الجزائر (١٥١٦ – ١٨٣٠ م) وبدأت تنتشر في أنحاء البلاد، وتؤسس الزوايا التابعة لها، وتجمع حولها المريدين، ثم ما لبثت أن أصبحت هي الممثل الوحيد للدين في البلاد، ولم يعد أحد يفكر – في ظل هذا الوضع – أن الدين هو شيء آخر غير الطرق الصوفية، ولعل أبلغ ما يعبر عن هذا الواقع: أن عدد الزوايا في الجزائر قد بلغت في القرن التاسع عشر ٣٤٩ زاوية، وبلغ عدد المريدين ٢٩٥٠٠٠ مريدا، حسب إحصائيات ديبون DEPONT، وكوبولاني COPOLANI[١٥]، وأن نسبة الملتفين حول الطرق الصوفية، الخاضعين لتأثيرها الروحي بلغت ٧٠٪ من سكان الجزائر[١٦].

ومما زاد الطين بلة، أن العلماء القلائل الذين كانوا ينكرون هذه المظاهر الطرقية ويدركون انحرافها عن الإسلام الصحيح وتشويهها للعقيدة، لم يكن باستطاعتهم الجهر بذلك أو التصدي لها، والقيام بإصلاح ما أفسدته، بسبب الاعتقاد الراسخ الذي كان يسيطر على عقول العامة، والذي يتلخص في أنه «من لا شيخ له فشيخه الشيطان» الذي شاع بين الناس بسبب رواسب القرون الماضية التي روجت فيها الطرقية لبدعة اختصاص الشيخ بالاتصال بالله، وضرورة اتباع المريدين له اتباعا أعمى في أمورهم الاعتقادية والحياتية، وإلا لم يستقم دينهم.

لذلك، كان من المحتم على هؤلاء العلماء أن ينتسبوا إلى طريقة من الطرق، وأن يسندوا أقوالهم إلى شيخ من مشائخها، وإلا لم يسمع كلامهم أحد. وهذا

---

(١٥) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ـج٣. دار الثقافة. بيروت. لبنان. ط٦. ١٩٨٣م. ص ٢٥٨.

(١٦) الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي – ج٤، ش.و.ن.ت. ١٩٨٥. ص ٣٤٤.

ما يفسر إقبال العلماء أواخر القرن الثامن عشر وطيلة القرن التاسع عشر على الانتماء إلى الطرق الصوفية، والإعلان عن ذلك، والتباهي به، وتسجيله في مؤلفاتهم ومذكراتهم، مع ما يستتبع هذا الانتماء من الالتزام بالطقوس الطرقية كأخذ الورد، والسبحة، والمصافحة، والمبايعة، ولبس الخرقة[١٧] وما إليها: «حتى أصبحنا نرى العالم المؤلف يعرف الناس في صدر تأليفه بمثل قوله: فلان المالكي مذهبا، الأشعري عقيدة، التيجاني طريقة»[١٨].

ويروي الإبراهيمي في إحدى مقالاته – بأسف وحسرة – حادثة وقعت له بتونس التي كانت تعاني مثلها مثل جميع البلاد الإسلامية من وباء الطرقية. توحي بالإذلال الذي لحق العلماء على يد الطرق الصوفية، بسبب الاعتقادات المنحرفة التي غلبت على عقول العامة، فجعلتهم يعظمون مشائخ الطرق، ويحتقرون حملة العلم، حيث يقول: «ولقد رأيت بعيني معا منذ سنين في طريق باب منارة من تونس، عالما يعد في الطبقة الممتازة في علماء جامع الزيتونة، يهوي بالتقبيل على يد مخرف مبتدع جاهل متعاظم، لو حُكِّمْتُ لحَكَمْتُ أن يكون عبدا لذلك العالم، فرأيت يومئذ كيف تعبد الأصنام... وسقط ذلك العالم من حسابي، فما ذكرته بخير حيا، ولا ترحمت عليه ميتا، ولا عددت موته – كموت العلماء – ثلمة في الإسلام»[١٩].

وهذه الهيمنة الروحية الواسعة التي كانت تمارسها الطرق الصوفية على الشعب الجزائري،هي التي جعلت الإبراهيمي يعتبرها استعمارا روحيا، يضاهي في خطورته بل يفوق الاستعمار المادي المتمثل في الاحتلال الفرنسي، لأن

---

(١٧) الخرقة: ومعناها في اللغة: القطعة من الثوب الممزق، وفي الاصطلاح الصوفي ثوب يُلْبِسُه الشيخ للمريد، وترمز إلى ارتباط الثاني بالأوَل، ارتباط تفويض وتسليم ودخول في حكم الطاعة، وهي قسمان: خرقة الإرادة وخرقة التبرك (راجع: المهدلي د. السيد محمد عقيل بن علي. دراسة في الطرق الصوفية. دار الحديث. القاهرة – مصر. ط١. ١٩٩٣ م. ص ٦٦ إلى ٧٠).

(١٨) جمعية العلماء، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الإسلامية. قسنطينة الجزائر. ط١. ١٩٣٥ م. ص ٢٣.

(١٩) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص ٣٤٣، ٣٤٤.

هذه الطرق الصوفية كانت تنخر المجتمع، وتفتت بنيته الأساسية من الداخل، مما يفقده كل أشكال المقاومة والمواجهة، ويصيب طاقاته بالشلل والعجز التام، «كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بيني وبين ابن باديس منذ اجتماعنا في المدينة المنورة[٢٠] أن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه، ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه: استعمار مادي – هو الاستعمار الفرنسي – يعتمد على الحديد والنار، واستعمار روحاني يمثله مشائخ الطرق المؤثرون في الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه، المتجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية، وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير، وثقلت وطأته على الشعب، حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد، خوفا من الله بزعمه...»[٢١].

ومن أشهر الطرق الصوفية التي كانت منتشرة في الجزائر الطريقة الرحمانية، التي أسسها محمد بن عبد الرحمن الزواوي الإدريسي الأزهري (١١٢٦ – ١٢٠٨ هـ)[٢٢]، والطريقة التيجانية التي أسسها أحمد بن محمد بن أحمد التيجاني[٢٣]، والطريقة القادرية التي تنسب إلى الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني[٢٤] المولود بجيلان من بلاد فارس و،التي نقلها إلى الشمال الإفريقي الشيخ مختار الكبير، والطريقة العليوية التي أسسها أحمد بن مصطفى

---

(٢٠) سنة ١٩١٣.

(٢١) الإبراهيمي، مجلة الثقافة – "أنا"، ع ٨٧.

(٢٢) راجع ترجمته في: مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر. بيروت. لبنان. د.ت، ص ٣٧٢ – و الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ج٢، ص ٤٥٧، وسعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ١٩٨١ م. ج١، ص ٥١٤ و نويهض،معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت. لبنانط٣ ١٩٨٣. ص ١٦٥.

(٢٣) راجع ترجمته في: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج١ص٥١٨، برادة، علي حرازم، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، دار الجيل، بيروت ن لبنان. ١٩٨٨ م.

(٢٤) راجع ترجمته في: ستودارد، لوثروب، حاضر العالم الإسلامي، ص ٣٩٥.

بن محمد المستغانمي الشهير بـ " ابن عليوة" (١٨٧٤ – ١٩٣٤ م)[٢٥]، والطريقة السنوسية التي أسسها محمد بن علي الخطابي (ت ١٨٥٩ م)[٢٦]، والطريقة الطيبية التي أسسها عبد الله بن إبراهيم أحد أشراف المغرب (ت ١٠٨٩ هـ)[٢٧]، والطريقة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن الشاذلي (ت ١٢٥٣ م)[٢٨] في مصر، وانتشرت في مراكش ومنها انتقلت إلى الجزائر، والطريقة العيسوية التي أسسها محمد بن عيسى الإدريسي في مكناس بالمغرب الأقصى، ومن هناك انتقلت إلى الجزائر[٢٩]، والطريقة الدرقاوية نسبة إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي[٣٠]، والطريقة الحنصالية التي أسسها الشيخ يوسف الحنصالي بقسنطينة[٣١]، والطريقة الزيانية التي أسسها محمد بن بوزيان بالجنوب الجزائري[٣٢].

ويمكن تقسيم هذه الطرق حسب نشاطاتها إلى قسمين:

١ – قسم خلواتي: ويشرف عليه شيوخ يدَّعون المعرفة الباطنية، ويزعمون الاطلاع على الغيب، وامتلاك العلم اللدني، وهم يتناولون أتباعهم بطريقة

---

(٢٥) راجع ترجمته في: نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص ٣٦٧، المدني، وحياة كفاح.ش.و.ن.ت.ط٢.١٩٨٢ م. القسم الثاني – ص ٧٠.

(٢٦) راجع ترجمته في: لوثروب. ستودارد. حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض. تعليق شكيب أرسلان. دار الفكر. بيروت. لبنان.ط٣. ١٩٧١ م. ص ٣٩٩.

(٢٧) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج١ – ص ٥٢٣. و الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج٣، ص ٢٥٨، و المدني، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ١٩٨٤ م. ص ٣٧٨ – ولوثورب. ستودارد. حاضر العالم الإسلامي – ج٢ – ص ٣٩٦

(٢٨) الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج٣، ص ٢٥٨، لوثورب. ستودارد. حاضر العالم الإسلامي،ج٢ ص ٣٩٦.

(٢٩) المرجع نفسه، ج ٣ – ص ٢٥٨ – و المدني، كتاب الجزائر، ص ٣٧٨.

(٣٠) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج١، ص ٥٢٥، و الجيلالي، تاريخ الجزائرالعام، ج٣، ص ٢٥٨.

(٣١) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج١ – ص ٥٢٦ – و الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج٣ – ص ٢٥٨.

(٣٢) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج١ – ص ٥١٢ – و الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج٣ – ص ٢٥٨.

خاصة في التربية الروحية، تتمثل في اعتزالهم في خلوات خاصة لمدة معينة، يحددونها لهم، يعكفون أثناءها على أذكار يلقنها لهم الشيخ، مع التقليل من الأكل والشراب والنوم، إلى أن تصفو نفوسهم ويفتح الله عليهم بالتجلي والإشراق، فيصبحوا مريدين حقيقيين عارفين بالله، وبعد ذلك يكتفون بأوراد وأذكار يتلونها بشكل جماعي عقب صلوات معينة، كالمغرب، والصبح والعصر من كل يوم.

ولكل طريقة تقاليدها في الخلوة والذكر والورد، وقد يضيف الشيخ لذلك تحفيظ القرآن، وتدريس بعض العلوم الدينية كالتوحيد والحديث والفقه وقواعد اللغة، سواء أقام بها هو أم بعض أتباعه الذين يحملون ألقابا عديدة تختلف باختلاف المناطق: كالمقدم، والوكيل، والنقيب، والخليفة، وغيرها[٣٣].

٢ – قسم غير خلواتي: وهو الذي يشرف عليه شيوخ يتولون تلقين أتباعهم بعض الأوراد والأذكار التي يتلونها بعد الصلوات، ولا يمارسون طريقة الخلوة ورياضة النفس بالاعتزال في خلوات خاصة، ويتمثل نشاطهم الأساسي – بالإضافة إلى ذلك – في تحفيظ القرآن وتلاوته، وتدريس بعض العلوم الشرعية واللغوية. ولعل أبرز مثال على هذه الزوايا: زاوية شلاطة التي اختصت في تحفيظ القرآن وتجويده، وتعليم القراءات، والتي تحولت إلى معهد علمي يقصده طلاب العلم من أنحاء الجزائر وتونس والمغرب، لأخذ القراءات، وفيها نبغ علماء أفذاذ، وتخرجت أعداد غفيرة من القراء والحفاظ. وزاوية بن أبي داوود[٣٤] التي كانت «أم الزوايا في القرون الثلاثة الأخيرة، ومنها انتشر العلم والفقه والنحو و الفلك و الحساب في بلاد زواوة، وما والاها، إلى قسنطينة شرقا، وإلى الأغواط جنوبا، وإلى المدية غربا»[٣٥].

وعن هاتين الزاويتين يقول صاحب " تعريف الخلف": «والذي في علمي

(٣٣) بوعزير، يحي، مجلة الثقافة " أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين"، ع ٦٣ – ماي – جوان ١٩٨١ – ص ١٦.
(٣٤) دبوز، محمد علي، نهضة الجزائر الحديثة، ج١ – ص ٥٨-٥٩.
(٣٥) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج٢ – ص ١٨٧.

أن من لم يقرأ القرآن في شلاطة ولم يتعلم الفقه في تاسلينت[٣٦]، ولو قرأ وتعلم في غيرهما يعتبر عند المحبين ناقص السر، والدليل على هذا أن الناس إذا أرادوا تعظيم طالب أو فقيه نسبوه إلى إحدى الزاويتين»[٣٧].

وعلى الرغم من أن كثيرا من هذه الطرق الصوفية انطلقت في بدايتها انطلاقة سليمة، وبنت زواياها على أساس تحقيق هدف نبيل هو تربية الفرد وتهذيب الأخلاق، ونشر مبادئ الدين والعلم بين الناس، إلا أنها – بمرور الزمن – انحرف بها أتباعها عن السبيل الذي رسمه لها مؤسسوها الأوائل[٣٨]، ودخلتها شوائب كثيرة، واعترتها نقائص، وغلبت عليها مظاهر الدروشة والدجل والشعوذة التي أصبحت في القرون الأخيرة هي المظهر العام للعصر في بلاد المسلمين، ومن ثم تحول جزء كبير من هذه الطرق إلى بؤرة فساد، ومصدر ضلال بعد أن كانت مركز إشعاع وتنوير وتربية.

ونحن في هذا البحث لا نقصد بالطرق الصوفية المنحرفة طريقة معينة بذاتها، وإنما نسعى إلى نقد المظاهر السلبية التي جسدتها هذه الطرق في ممارساتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية بعامة، والتي كان لها أثرها السيء والعميق في المجتمع الجزائري.

وعليه، فإنه يمكننا تصنيف الجهود التي قامت بها الطرق الصوفية في الجزائر إلى قسمين: جهود إيجابية، وأخرى سلبية. وسنحاول أن نشير إلى أهم مظاهر الدور الإيجابي الذي أدته هذه الطرق، أما الدور السلبي فسنتناوله بالتفصيل في صميم هذا البحث عند الحديث عن مواقف الإبراهيمي:

١ – اهتمت بتحفيظ القرآن الكريم الذي كان من أولوياتها الأساسية، حيث كانت زواياها تستقبل أفواجا كبيرة من الأطفال ذكورا وإناثا، تحفظهم كتاب الله وتنشئهم على حبه وتقديسه، مما ساعد على بقائه في الصدور، وحماه من النسيان والضياع، وعمق وجوده بين مختلف الطبقات الاجتماعية.

---

(٣٦) مقر زاوية ابن أبي داوود.
(٣٧) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج٢ – ص ٥٤٥.
(٣٨) راجع: المدني، كتاب الجزائر، ص ٣٧٦.

٢ – نشر أتباعها الإسلام في أنحاء القارة الإفريقية، وأقاليم الصحراء الواسعة، فدانت لهم بلدان كثيرة، وعلى يدهم تغلغل الإسلام في أصقاع شاسعة من إفريقيا.

٣ – عملت على نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية بما كان علماؤها يبثونه في صدور طلاب العلم من كتب التراث وأمهات المصادر الثقافية التي تتداولها الأجيال، وبما كانت تنفق على طلبة العلم لتشجيع الإقبال عليه.

٤ – أدت خدمة جليلة للثقافة الجزائرية بما حفظت زواياها من مكتبات ضخمة حفلت بأنواع المخطوطات النادرة، والكتب والدواوين في مختلف العلوم والفنون، لاهتمام كثير من شيوخها بالعلم، و تشجيعهم للتعليم والنسخ والتأليف والجمع.

٥ – قامت بدور بارز في حماية المجتمع من عوامل الفرقة والتشتت بالقضاء على الخلافات، وإطفاء نار العداوة من خلال مجالس الصلح التي كان يعقدها شيوخها، ويعيدون فيها المياه إلى مجاريها، ويجنبون المجتمع غوائل الصدام والفتنة.

٦ – شاركت مشاركة فعالة في مقاومة أنواع الظلم الاجتماعي، والاستبداد السياسي، وسعت إلى مناصرة الضعفاء والمظلومين، واسترداد حقوقهم والضغط على الظالمين، بما كانت تتمتع به من نفوذ روحي كبير، كما هو الحال في المواقف المشرفة التي وقفها كثير من شيوخ الطرق الصوفية ضد السلطة العثمانية عندما يجور ولاتها، ويتمادون في ظلم الناس وقهرهم[٣٩].

٧ – قامت بثورات شعبية وانتفاضات كثيرة ضد الاستعمار الفرنسي، وكونت جبهات مقاومة عنيفة أوقفت الزحف الاستعماري نحو الداخل وحاصرت الجيوش الغازية في الشريط الشمالي لعشرات السنوات، وكانت الطرق الصوفية هي التي وقفت وراء كل الثورات والانتفاضات الشعبية التي

(٣٩) بوعزيز، يحي، مجلة الثقافة – "أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين"، ع٦٣، ص ١٨-١٩.

شهدتها الجزائر كثورة الإخوان الرحمانيين التي قامت بها الزاوية الرحمانية بزعامة الحاج المقراني، والشيخ بلحداد وللافاطمة نسومر، وغيرهم، وثورة الأمير عبد القادر شيخ الزاوية القادرية، وثورة الزاوية الدرقاوية، وثورة أولاد سيدي الشيخ، وثورة بوعمامة وغيرهم.

وقد أشار أحمد توفيق المدني إلى الدور الإيجابي الذي قامت به الطرق الصوفية في الجزائر فقال:«إنها استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات، وعمل رجالها الكاملون الأولون على تأسيس الزوايا – الرباطات – يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل، ويقومون بتعليم الناشئة وبث العلم في صدور الرجال. ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها، والتي نقف أمامها موقف المعترف المعجب، لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية، ولا لعلوم الدين. فالزوايا الكبرى أمثال معهد الهامل، ومعهد اليلولي، ومعهد سيدي منصور هي التي كونت دائما في هذه البلاد طبقة فاضلة من العلماء والفقهاء، وحفظة القرآن الشريف، وكانت واسطة فعلية في نقل الإسلام إلى بلاد أقاصي الجنوب والسودان»(٤٠).

وعندما ظهرت حركة التجديد الإسلامي في الجزائر – في بداية القرن العشرين – كانت معظم الطرق الصوفية قد تحولت إلى قلاع تموج بالفساد الديني والانحلال الخلقي، وتسير في ركاب الاستعمار، وتتمتع بنفوذ واسع، وتحكم السيطرة على العقول والقلوب، وتحتكر التصرف في الشؤون الدينية، وكانت العامة تقدس شيوخ الطرق والزوايا، وترهبهم، وتعتقد فيهم الخوارق والكرامات، والقدرة العجيبة على الاتصال بالله، والاستجابة للدعوات وإنجاح الأعمال.

فكان لزاما على الحركة الإصلاحية – التي كانت تسعى إلى تغيير المجتمع الجزائري – أن تتصدى لهذه الانحرافات الخطيرة، وأن تخلص الإنسان الجزائري من المأساة العميقة التي كان يعيشها، وقد تجلى ذلك في

(٤٠) المدني، كتاب الجزائر، ص ٣٧٦.

ثورتها العنيفة على الطرق الصوفية المنحرفة، ورفضها للأوضاع الطرقية جملة وتفصيلا، لأنها بدعة لم يعرفها السلف الصالح[٤١]، سواء في عهد النبوة أم في عهد الصحابة والتابعين، ودعوتها للرجوع إلى مصادر الهداية الصحيحة (الكتاب والسنة) سواء في مجال العقيدة أوالفقه أو التربية الروحية.

وكان العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أحد رجالات حركة الإصلاح البارزين الذين حملوا بشدة على ظاهرة الطرقية في الجزائر، وأبانوا بوضوح عن موقفهم الصريح منها. حيث أعلن عليها حربا عنيفة من خلال الخطب والدروس المسجدية، والمحاضرات العامة، والتعليم العربي الحر، وظل قلمه – طوال عقود من السنين – سيفا مسلطا عليها وعلى رجالها، يفضح أساليبهم، ويسفه معتقداتهم، ويكشف ألاعيبهم للعامة في إصرار مميت لا يعرف الهزيمة أو التراجع: «إن هذا القلم الذي خط الألف من هذا الموضوع لا يجف ولا يكف حتى يخط الياء منه»[٤٢].

ثالثا: موقف الإبراهيمي من التصوف والصوفية عموما

لقد كانت رؤية الإبراهيمي لظاهرة التصوف واضحة جدا منذ البداية. ذلك أنه اتخذ منها موقفا صارما، فرفض وجودها في الكيان الإسلامي رفضا قاطعا، ورفع شعار (لاصوفية في الإسلام)، ودعا في حماسة شديدة إلى محاربتها، وتقويض أركانها، وتطهير المجتمع الجزائري من آثارها، ويصرح بهذا الموقف قائلا «أفيجمل بجنود الإصلاح أن يَدَعُوا هذه القلعة تحمي الضلال وتؤويه، أم يجب عليهم أن يحملوا عليها حملة صادقة، شعارهم (لاصوفية في الإسلام) حتى يدكوها دكا، وينسفوها نسفا، ويذروها خاوية على عروشها؟»[٤٣].

وفي إطار النقد الذي وجهه الإبراهيمي للطرق الصوفية المنحرفة في

---

(٤١) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس – وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط١، ١٩٩١. ج٥ – ص ١٥٥.

(٤٢) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ٥٠.

(٤٣) المصدر نفسه – ج١ – ص ١٠٨.

الجزائر، نحده يبحث في تاريخ التصوف عن أصوله الفلسفية، وعلاقته بالإسلام، ونلاحظ – أثناء ذلك – ثورته على هذه الظاهرة ورفضه لكل أشكالها. وإذا حاولنا البحث عن خلفيات هذه الثورة، نجدها تستمد روحها من المرجعية الفكرية للإبراهيمي، والتي تتمثل في قيم الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح. وهذه المرجعية هي التي حددت موقفه من الصوفية، وجعلته يعد التصوف كمصطلح وكفلسفة روحية لها رموزها وإشاراتها وطقوسها بدعة لم تكن موجودة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يعرفها سلف الأمة الصالح «ثم ما هذا التصوف الذي لا عهد للإسلام الفطري النقي به ! إننا لا نقره مظهرا من مظاهر الدين أو مرتبة عليا من مراتبه»(٤٤).

وقد أكد أبو القاسم القشيري ذلك حينما أشار إلى أن العهد النبوي والراشدي لم يعرف تسميات معينة للدلالة على سلوك بعض الناس واتجاههم نحو الزهد والتقشف، ولم يكن بين أهله من حاول التميز بسلوك ينفرد به دون غيره، فقال «اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام، إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة بالتابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا، فانفرد خواص أهل السنة، المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة»(٤٥).

وهكذا، فقد تبين للإبراهيمي بعد عرض ظاهرة التصوف على ميزان الإسلام، أنها لا صلة لها به. وهو لم يكن بدعا في ذلك، فقد سبقه في هذا

---

(٤٤) المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٧.

(٤٥) القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: دكتور عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر. دت – ص ٧.

الأمر علماء الإسلام الراسخون الذين وقفوا للتصوف بالمرصاد منذ ظهوره وتصدوا لدعاته، ويوضح الإبراهيمي ذلك بقوله: «وكان لأئمة السنة وحماتها الواقفين عند حدودها ومقاصدها ومأثوراتها مواقف مع الحاملين لهذه النزعة، وموازين يزنون بها أعمالهم وآراءهم، وما يبدر على ألسنتهم من القول فيها، ولسان هذه الموازين هو صريح الكتاب وصحيح السنة»[٤٦].

وهو يؤكد هذه الفكرة في موضع آخر، حين يشير إلى أن الدين قد اكتمل على يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ولا موضع للزيادة أو النقصان فيه، فيقول متحدثا عن الصوفية: «والحق في هذه النزعة أنها صبغة روحية مرجوحة في ميزان الشرع وأحكامه، وإنما يقبل منها ما يساير المأثور، ولا يجافي المعروف من هدي محمد وأصحابه، فإن الدين قد تكامل بختام الوحي، والزيادة فيه – بعد ذلك – كالنقص فيه، كلاهما منكر وكلاهما مرفوض، وما لم يكن يومئذ دينا فليس بدين بعد ذلك»[٤٧].

وفي هذا النص إشارة واضحة إلى موقف الإبراهيمي من المتصوفة المعتدلين الذين آثروا اعتزال الدنيا والتفرغ للعبادات بغية التقرب إلى الله، والتزموا في زهدهم تعاليم القرآن وتوجيهات النبي الكريم، ولم يسلكوا سبيلا ينافي ما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة، فهذا التوجه – في نظره – مرجوح في ميزان الشرع وأحكامه، ويقوم على «الانقطاع والزهد في الدنيا والتقشف ورياضة النفس على المشاق وفطمها عن الشهوات»[٤٨] ولكنه لا يسلم بانتمائهم إلى تيار التصوف وإنما يرى أنهم كانوا زهادا و عبادا، اقتفوا آثار السلف الصالح في الاستعلاء عن زخارف الدنيا والاعراض عن شهواتها. ويمثلهم في التاريخ الإسلامي إبراهيم بن أدهم التميمي (ت ١٦١ هـ) والحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ)، وأبو سعيد الخراز(ت ٢٧٧هـ) والفضيل بن عياض التميمي (ت١٨٧هـ)، وبشر الحافي (ت ٢٢٧هـ) ومعروف الكرخي (ت ٢٥٥ هـ)

---

(٤٦) آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج٤ – ص ٣٤٢.
(٤٧) المصدر نفسه – ج٤ – ص ٣٤٣.
(٤٨) المصدر نفسه – ج١ – ص ١٠٠.

والجنيد البغدادي (ت٢٩٧هـ)[٤٩]، والذي يقول: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم»[٥٠]، وقال «من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتَدَى به في هذا الأمر (أي التصوف)، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة»[٥١].

ويقول سهل التستري (ت٢٨٣ هـ) «أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق»[٥٢]. ويقول أبو بكر الترمذي «لم يجد أحد تمام الهمة بأوصافها إلا أهل المحبة، وإنما أخذوا ذلك باتباع السنة ومجانبة البدعة، فإن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أعلى الخلق كلهم همة، وأقربهم زلفى»[٥٣].

وعليه، فإن الإبراهيمي يفرق هنا بين الزهد والتصوف: لأن الأوّل جزء صميم من النظام التربوي الروحي الإسلامي الذي درج عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، واقتدى به أصحابه وتابعوهم من بعدهم، وله من الأدلة الشرعية، والمواقف العملية والسلوكية مايؤيده في الكتاب والسنة، وأبرز مايميزه أنه يجعل المسلم مالكا لأسباب الحياة، فيشارك في عمران الأرض بالسعي في مناكبها، واستغلال خيراتها ثم لا يجعل هم الدنيا يملك قلبه[٥٤].

أما الثاني فهو فلسفة روحية استندت إلى القرآن والسنة في منطلقاتها الأولى، لكنها – مع تطور حركتها – أخذت كثيرا من مفاهيمها من مصادر

---

(٤٩) الشرجي،عبد الغني غالب، الإمام الشوكاني حياته وفكره، مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان. ط١.١٩٨٢ م. ص ٣٢٧.

(٥٠) الشاطبي، الاعتصام، مكتبة الرياض الحديثة، المملكة العربية السعودية، د.ت. ج١ – ص ٩٥.

(٥١) المرجع نفسه – ج١ – ص ٩٥.

(٥٢) المرجع نفسه، ج١ – ص ٩٥

(٥٣) المرجع نفسه – ج١ – ص ٩٤.

(٥٤) عبد الحكيم، عبد الغني قاسم – المذاهب الصوفية ومدارسها. مكتبة مدبولي، القاهرة. مصر. ١٩٨٩م. ص٥٤.

أجنبية. وأوائل الزهاد الذين أسلفنا ذكرهم لم يدرجوا في قائمة الصوفية إلا بعد فترة من الزمن، حينما كوّن التصوف تيارا فكريا مستقلا في الحياة الإسلامية. وذلك بإجماع كثير من الباحثين الذين يذهبون إلى أن التصوف كمصطلح، ومفهوم ذي أبعاد واضحة لم يظهر إلا في نهاية القرن الثاني الهجري، وبداية القرن الثالث الهجري لدى طائفة معينة لا يستبعد تأثرها بالثقافات الأجنبية(٥٥).

وأما الصنف الثاني الذي لا يعترف الإبراهيمي بصلته بالإسلام إطلاقا فهو صنف مذموم، انحرف عن الكتاب والسنة، عندما شرع لنفسه من الدين ما لم يأذن به الله، ووضع قواعد للسلوك تقوم على احتقار الدنيا والهروب منها والزهد في متاعها، وحرمان النفس من الزينة والمباهج والملذات، ومجاهدة الشهوات، وادعى لنفسه أحوالا وواردات، ومواجد، وأذواقا(٥٦) لم ترد في الكتاب ولا في السنة. وهذا التصوف هو الذي عده الإبراهيمي ظاهرة غريبة تسللت إلى الحياة الإسلامية بعد اتساع الفتوحات، وأحدثت فيها سلوكا دخيلا لا أصل له في القرآن والسنة، وسيرة السلف الصالح، ولذلك صرح – في اقتناع راسخ – بأنها بدعة مستحدثة حيث يقول: «والصوفية أو الطرقية كما نسميها نحن في

---

(٥٥) راجع: عبد الحكيم، عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها (وفيه يفرق الكاتب بين الزهد الذي يستند إلى الكتاب والسنة، وبين التصوف الذي طوّر ظاهرة الزهد عند المسلمين وأضاف إليها كثيرا من مخلفات الفلسفات القديمة، وطعمها بالمذاهب الدينية التي حملتها ثقافات الشعوب المغلوبة، لتكون التصوف الفلسفي، ص١١ – ١٢ – ٤٢). وراجع أيضا: قريب الله، د. حسن الشيخ الفاتح. في الزهد والتصوف. دار الجيل. بيروت – لبنان – ط١ – ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م (وهو يعتبر الزهد مرحلة أولى تسبق التصوف – ص٢٥). و: د. الجزائري. محمد بن عبد الكريم. التصوف في ميزان الإسلام. دار هومه. الجزائر. ط١. ١٩٩٧ م. ص ٧ – ٨.

(٥٦) يعتقد الصوفية أن الذوق – لا الشرع ولا العقل – هو وحده وسيلة المعرفة ومصدرها فهو الذي يُقَوِّم حقائق الأشياء، ويحكم عليها بالخيرية أو الشرية، بالحسن أو القبح، بأنها حق أو باطل، ومن اصطلاحاتهم: "من ذاق عرف" أي من جعل الذوق وحده هو الوسيلة إلى المعرفة كان حقا من العارفين بكنه الحقائق الربانية. ولكل صوفي ذوقه الخاص في وزن الأشياء، وتعيين الحقائق (هذه هي الصوفية، عبد الرحمن الوكيل دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط٤. ١٩٨٤ م. ص ٢١، ١٠٩).

مواقفنا معها، هي نزعة مستحدثة في الإسلام لا تخلو من بذور فارسية قديمة»[٥٧].

وقد حاول أن يثبت ذلك من خلال التأريخ لظاهرة التصوف في الحياة الإسلامية فأشار إلى أن هذه النزعة ظهرت في أول أمرها جلية في بلاد العراق بتأثير الحضارة الفارسية، ومعتقداتها الوثنية: «بما أن نشأة هذه النزعة كانت ببغداد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، واصطباغ بغداد بالألوان الفارسية في الدين والدنيا معروف، وتدسس بعض المتنطعين من الفرس إلى مكامن العقيدة الإسلامية لإفسادها لا يقل عن تدسس بعضهم إلى مجامع السياسة»[٥٨].

ويؤيد أحد الدارسين هذه الحقيقة حينما يؤكد أن العهد الإسلامي الأول – أي عهد الصحابة والتابعين – لم يشهد وجود طائفة انفردت بسلوك خاص في العبادات، بل كان المجتمع كله منسجما في اقتدائه بالنبي الكريم في سيرته وأفعاله، ثم يخرج بنتيجة مفادها أن «كلمة (صوفي) ودلالتها على نمط من السلوك كانت في أول أمرها وحتى نهاية القرن الثاني الهجري مقصورة على الكوفة، حيث المؤثرات الفارسية والهندية القديمة كانت تطل في شكل إفرازات فكرية على الساحة الإسلامية»[٥٩].

ويرى المؤرخون أن لفظ (صوفي) ورد كلقب مفرد لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، فقد نُعِتَ به جابر بن حيان، وهو صاحب كيمياء شيعي من أهل الكوفة، وله في الزهد مذهب خاص[٦٠]، وأما صيغة الجمع (صوفية) فقد ظهرت عام ١٩٩ للهجرة، وكانت تدل على مذهب

---

(٥٧) آثار مجمد البشير الإبراهيمي – ج٤ – ص ٣٤٢.

(٥٨) المصدر نفسه، ج٤ – ص ٣٤٢.

(٥٩) طعيمة، صابر، دراسات في الفرق، مكتبة المعارف. الرياض. المملكة العربية السعودية. ط ٢. ١٩٨٣ م. ص ١٠٤-١٠٥.

(٦٠) دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين، دار المعرفة. بيروت. لبنان.د.ت. مج ٥ – ص ٢٦٦.

من مذاهب التصوف الإسلامي يكاد يكون شيعيا نشأ في الكوفة، وكان (عبدك) الصوفي آخر أئمته، وهو من القائلين بأن الإمامة بالتعيين، وكان لايأكل اللحم، وقد توفي ببغداد عام ٢١٠ هـ[٦١].

ويستنتج بعض الدارسين من ذلك أن التصوف والصوفية في دلالاتهما على نمط من السلوك في العبادة يخالف في بعض مظاهره ما أثر عن الكتاب والسنة كانت في أول أمرها، وحتى نهاية القرن الثاني الهجري مقصورة على الكوفة، حيث المؤثرات الفارسية والهندية القديمة كانت تطل في شكل إفرازات فكرية على الساحة الإسلامية[٦٢]. وقد أطلق (الصوفي) و(المتصوف) بادىء الأمر في بداية القرن الثالث الهجري مرادفا للزاهد والعابد الفقير ويتلخص معنى هذه الألفاظ في شدة العناية بأمر الدين ومراعاة أحكام الشريعة[٦٣].

ويرى الإبراهيمي أن التصوف قد تستر – في أول أمره – بدعوى الزهد والانقطاع عن الدنيا، ورياضة النفس على الابتعاد عن الشهوات ومواطن الفتن، ولكنه كان يضمر في طياته جراثيم الفلسفات الوثنية القديمة ورواسبها كالفارسية والهندية، واليونانية والمسيحية، والتي بدأت تظهر بالتدرج على سلوك بعض الصوفية وعلى ألسنتهم، وهو يشير إلى ذلك قائلا أن الصوفية «نزعة غامضة مبهمة، تسترت في أول أمرها بالانقطاع للعبادة والتجرد من الأسباب، والعزوف عن اللذات الجسدية، والتظاهر بالخصوصية، وكانت تأخذ منتحليها بشيء من مظاهر المسيحية وهو التسليم المطلق[٦٤] وشيء من

---

(٦١) المرجع نفسه – ص ٢٦٦.وراجع أيضا: قريب الله، د. حسن الشيخ الفاتح. في الزهد والتصوف. ص٤٣ – ٤٤.

(٦٢) طعيمة، صابر، دراسات في الفرق، ص ١٠٤-١٠٥.

(٦٣) دائرة المعارف الإسلامية – مج ٥ – ص ٢٧٩.

(٦٤) شيخ الطريقة عند الصوفية هو الذي انكشف له الحجاب، وتجلت له الأقدار، وعرف الأسرار، وعلى المريد – إذا رغب في التدرج والوصول إلى مرحلة الكشف والاشراق – أن يتبع الشيخ اتباعا أعمى، وأن يواظب على ما يردده الشيخ من أدعية وأذكار، على أن يكون في كل علاقاته معه كما يقول القشيري: كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، لا حركة ولا تدبير، عندئذ يكون المريد عضوا في طريق الله (القشيري، الرسالة القشيرية، ص ٩٥).

مظاهر البرهمية وهو تعذيب الجسد وإرهاقه، توصلا إلى كمال الروح زعموا[٦٥] وأين هذا كله من روح الإسلام وهدى الإسلام؟»[٦٦].

ويلتقي الإبراهيمي في رأيه هذا مع الفيلسوف الإسلامي محمد إقبال الذي شهِر بانحراف التصوف في كثير من البلدان الإسلامية، وأكد مخالفته للكتاب والسنة، لأنه – في نظره – أعجمي المصدر، أخذ تعاليمه من رهبانية كل أمة وتأثر بكل نحلة[٦٧]، وأكد أن الرهبانية التي تصطبغ بها الصوفية إنما تظهر في الأمم لإبطال الشريعة والقانون، وهذا ما يفسر الحرب العنيفة التي شنها على صوفية عصره.

وابتداء من القرن الثالث الهجري، أصبح التصوف مصطلحا معروفا في الفكر الإسلامي بعد أن اتسعت دائرته، واستفحل أمره، وتكون لمنتحليه علم مستقل، أصبح يعرف بعلم الأحوال أو المكاشفات[٦٨]، أو علم القلوب، وسمى المتصوفة أنفسهم بأرباب الحقائق وأهل الباطن، وسموا من لم يترسم خطاهم بأهل الظاهر، وهم العلماء الذين اشتغلوا بعلم الشريعة وتخصصوا في تبيان الأحكام الفقهية. ويعتقد الإبراهيمي أن هذه الادعاءات لم تكن سوى ذرائع لإخفاء الوجه الحقيقي للتصوف، وإحداث فجوة خطيرة بين مختلف علوم الإسلام، وهو ما حدا به إلى القول: «ولم يتبين الناس خيرها من شرها لما كان يسودها من التكتم والاحتراس، حتى جرت على ألسنة بعض منتحليها كلمات

---

(٦٥) من مظاهر تعذيب الصوفية لأجسادهم: التشرد في الأرض، والاستسلام للدغ العقارب بدعوي الصبر والاذعان لمشيئة الله، ونطح الرأس بالحائط، وضرب الساق بالسوط لكي لايستسلم للنوم، والمغالاة في الجوع والسهر، وكل هذا في سبيل تطهير النفس من المعاصي للوصول إلى مرتبة الفناء التي شاعت مقولتها عند أتباع براهما في الهند (الزين، سميح عاطف،الصوفية في نظر الإسلام، دار الكتاب اللبناني. بيروت. لبنان. دت. ص ٨٣-٨٤-٨٨).

(٦٦) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ٩٩.

(٦٧) المراكشي، محمد الصالح، تفكير محمد رشيد رضا، الدار التونيسية للنشر. تونس. ١٩٨٥ م. ص ٢٨٧.

(٦٨) محسن عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة للنشر، القاهرة. مصردت. ص ٨٦.

كانت ترجمة لبعض ما تحمل من أوزار، فراب أئمة الدين أمرها، وانفتحت أعين حراس الشريعة فوقفوا لها بالمرصاد، فلاذ منتحلوها بفروق مبتدعة، يريدون أن يثبتوا بها خصوصيتهم كالظاهر والباطن، والحقيقة والشريعة، إلى ألفاظ أخرى من هذا لا تخرج فحواها عن جعل الدين الواحد دينين»[٦٩].

وزخر هذا العلم بأنواع الرموز والمصطلحات الخاصة بممارسة هذه النحلة وطقوسها، ومراحل الرقي الروحي التي يسلكها من يريد أن يصل إلى درجة الصفاء والتجرد ليشارف الملأ الأعلى، وألف أقطابها معاجم خاصة[٧٠] برموز التصوف ومراحله ليكون تحت تصرف من يريد أن يلج هذا العالم الغامض، ويصور الإبراهيمي هذه المرحلة بقوله: «ثم استفحل أمرها فاستحالت علما مستقلا، يشكل معجما كاملا للاصطلاحات، ودونت فيها الدواوين التي تحلل وتشرح وتصف الألوان الباطنية للنفس، وتبين الطريق الموصل إلى الله، والوسيلة المؤدية إلى السعادة، وكيفية الخلاص من مضائق هذه الطريق أوعاره»[٧١].

وبعد أن أحدث المتصوفة فجوة بين الجانب العملي في الإسلام والمتمثل في الشريعة، وبين الجانب الروحي الذي ادعوا الاستئثار به، ظهر الانحراف جليا في سلوكهم، وتحدث أقطاب الصوفية عن درجة الولاية التي أوصلهم إليها علم التجليات والكشوف الربانية، ومعناها تسخير الكون لإرادتهم والتصرف فيه، وإجراء المعجزات على أيديهم كإحياء الموتى، وإبراء المرضى، وإعادة البصر للمكفوفين[٧٢]، والإخبار بالغيب، ومعرفة الحقائق المجردة. وحفلت كتبهم بعجائب أحوالهم، وحكاياتهم التي تتحدث عن استضافة الملائكة ومخاطبتهم، ومؤاكلة السباع، وإتيان الطير لهم بما يحتاجونه من خبز وأخبار، وطي الأرض

(٦٩) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ٩٩.
(٧٠) ومن هذه المعاجم: معجم محي الدين بن عربي.
(٧١) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج ٤ – ص ٣٤٢.
(٧٢) الوكيل، عبد الرحمان، هذه هي الصوفية، ص ١١٦-١١٨.

للسياحة[٧٣]، والعروج إلى السماء، والاجتماع بالرسول عليه الصلاة والسلام في كل وقت يقظة[٧٤] وما إلى ذلك.

ويسهب الإبراهيمي في تصوير محافل الطرقية، باعتبارها الشكل الأخير للمذاهب الصوفية – التي تنشر بين العامة هذه المعتقدات الخاطئة، وتنسب لنفسها هذه الخوارق، ويتحدث عن الشعراء الذين يحيون هذه المحافل ويتزلفون إلى مشائخ الطرق بالمدائح التي تصفهم بما يرفعهم فوق البشر: «وأكبر جُرْحَة دينية عندي إقرارهم لتلك الأماديح... التي يقولها فيهم الشعراء المتزلفون، وينشدونها بين أيديهم في محافلهم العامة، وفيها ما هو الكفر أو دونه الكفر من وصفهم بالتصرف في السموات والأرضين، وقدرتهم على الاغناء والافقار، وإدخال الجنة والانقاذ من النار»[٧٥].

وقد غلت بعض طوائف الصوفية في معتقداتها بعد أن تشبعت بالأنظمة الروحية الهندية والفارسية، والرهبانية النصرانية، واليهودية، فأسقطت الفرائض، وزعم بعضهم أنهم بتوارد الأنوار الربانية عليهم قد ارتفعوا إلى مقام الخواص، ولم يعودوا مكلفين بما كلف الله به عامة الناس الذين لم يذوقوا طعم الاتصال بالله ومن ذلك قولهم «إن التكليف خاص بالعوام ساقط عن الخواص»[٧٦]، كما ادعى بعضهم الآخر أنهم من «أهل الخطوة» ليبرروا إهمالهم للفرائض ومعنى ذلك «أنهم يصلون في المساجد النائية فيقولون مثلا: إنهم يصلون العصر في الكعبة، والمغرب في المسجد الأقصى، ويعودون لصلاة العشاء بمسجد البدوي بطنطا، أو الشعراني بمصر وغير ذلك»[٧٧].

كما عاقروا الخمور وارتكبوا المعاصي، وادعوا أن الخمر تتحول في جوف

---

(٧٣) الزين، سميح عاطف، الصوفية في نظر الإسلام، ص ٤٣.
(٧٤) الميلي، مبارك بن محمد، رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث، قسنطينة. الجزائر. ط٣. ١٩٨٢ م. ص ٢٧٩.
(٧٥) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ١٠٩.
(٧٦) الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، ص ٢٧٨.
(٧٧) الزين، الصوفية في نظر الإسلام، ص ٤٣.

الصوفي عسلا[٧٨]، وأن ارتكابهم للمعاصي قدر من الله مقدور ف،علوه بوحي من الله، ليمتحنوا به قلوب العامة ودرجة إيمانهم، يقول الدباغ «إن الولي الكبير فيما يظهر للناس يعصي، وهو ليس بعاص، وإنما روحه حجبت ذاته، فظهرت في صورتها، فإذا أخذت في المعصية فليست بمعصية»[٧٩]، ويقول أيضا «يتصور في طور الولاية أن يقعد الولي مع قوم يشربون الخمر، وهو يشرب معهم، فيظنونه أنه شارب الخمر، وإنما تصورت روحه في صورة من الصور وأظهرت ما أظهرت»[٨٠].

وكانوا يرقصون على نغم الأوتار في حلقات ومجموعات، واتخذوا طبولا ودفوفا يحدثون بها حالة صخب قوية يستعينون بها على إحداث الوجد والاستغراق في غيبوبة لا يحسون معها بما يدور حولهم. وادعوا أخيرا حلول الذات الإلهية في البشر، واتحادها بالكائنات، وهم يفسرون هذه الظاهرة بأن الصوفي بعد أن يقطع أشواطا طويلة في المجاهدة، يصل إلى درجة من الغيبوبة والذهول عن نفسه، وعندها يتلقى من الغيب، ويحيط بالعلم اللدني، ويصبح بمقدوره التصرف في الكون بالأسماء والعزائم.

وبعد ذلك تبدأ مرحلة الفناء عن البشرية والاستغراق في الألوهية فينكر المتصوف نفسه، ولا ينسب إليها قولا ولا فعلا، بل يرى جميع حركاته وسكناته من أفعال الله[٨١]، عند ذلك يصرح أنه بوصوله هذه الدرجة من الفناء في الخالق يصبح هو والإله شيئا واحدا، وهذا معنى قول الحلاج «أنا الحق» وقوله «ما في الجبة غير الله»[٨٢].

وهذه هي أخطر مرحلة وصلها التصوف في الانحراف العقدي، ويمثلها حسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩ هـ) ومحي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ)

---

(٧٨) الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، ص ٢٧٥.
(٧٩) الدباغ، الإبريز، ج٢ – ص ٤٣.
(٨٠) المرجع نفسه، ج٢ – ص ٤١.
(٨١) الزين، الصوفية في نظر الإسلام، ص ٨٨.
(٨٢) طعيمة، صابر، دراسات في الفرق، ص ١١٧.

وابن الفارض (ت٦٣٢ هـ) وعفيف الدين التلمساني (ت ٦٩٠ هـ)، وابن سبعين (ت ٦٦٩ هـ) وكلهم جهروا بوحدة الوجود[٨٣].

ولعل ظهور هذه الانحرافات الخطيرة لدى غلاة الصوفية على مدار التاريخ الإسلامي، بالاضافة إلى تحللهم من قيود الشريعة هي التي دفعت الإبراهيمي إلى رفض التصوف رفضا قاطعا، واعتباره قلعة من قلاع الفساد والشر، التي أسهمت طوال قرون عديدة في تخدير عقول المسلمين، وإبعادهم عن القرآن والسنة، وإغراقهم في الأوهام والخيالات والطقوس الغريبة، وقتل إرادة العمل والسعي في نفوسهم، وفتح أبوابها لكل من هب ودب من المنحرفين والمشعوذين والدجالين «فكل راقص صوفي، وكل ضارب بالطبل صوفي، وكل عابث بأحكام الله صوفي، وكل ماجن خليع صوفي، وكل مسلوب العقل صوفي، وكل آكل للدنيا بالدين صوفي، وكل ملحد في آيات الله صوفي وهلم سحبا»[٨٤].

وهو ينحى باللائمة على علماء المسلمين الذين اغتروا بمظاهر الصوفية في أول أمرها فلم يحاربوها ولم يمنعوا انتشارها لحسن ظنهم بها حتى غدت مرضا عضالا في جسم المجتمع الإسلامي «فقد أصبحت هذه الكلمة (صوفية) التي غفلوا عنها أمًّا ولودا، تلد البر والفاجر، ثم تمادى بها الزمن، فأصبحت قلعة محصنة تؤوي كل فاسق وكل زنديق وكل ممخرق وكل داعر، وكل ساحر وكل لص، وكل أفاك أثيم»[٨٥].

رابعا: موقف الإبراهيمي من الطرق الصوفية المنحرفة

أما الطرق الصوفية في الجزائر فإن الإبراهيمي كان واضحا جدا في موقفه منها. ذلك أنه حدد – منذ البداية – الصنف الذي سوف يعلن عليه ثورته وهو الطرق الصوفية المنحرفة التي اتخذت من الإسلام مصيدة توقع في

---

(٨٣) الشرجي، الإمام الشوكاني، ص ٣٢٨.
(٨٤) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ١٠٨.
(٨٥) المصدر نفسه – ج١ – ص ١٠٨.

شراكها ضعاف النفوس والجهلة من العامة بابتزاز أموالهم وتحكيم الأوهام والبدع والخرافات في أذهانهم، وإفساد أخلاقهم، وزرع بذور الفرقة بينهم: «ونعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شر، وأننا حين نقضي عليها إن شاء الله نقضي على كل باطل ومنكر وضلال، ونعلم – زيادة على ذلك – أنه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة»[٨٦].

ومما لا شك فيه أن الإبراهيمي كان على بينة مما يقول ويفعل، وكان يدرك تمام الإدراك أن هناك إلى جانب الطرق الصوفية المنحرفة التي ظلت طوال عصور كثيرة بؤرة فساد ومصدر ضلال، طرقا أخرى قام عليها رجال صالحون منضبطون في سلوكهم بأحكام الشريعة، وملتزمون في أعمالهم وأقوالهم وعبادتهم بالكتاب والسنة، وقد لعبوا دورا عظيما في نشر الإسلام والعربية في أعماق إفريقيا، انطلاقا من الشمال الإفريقي، ويدرك أيضا أن زواياها كانت عبارة عن معاهد تشع منها أنوار العلم، ويتخرج منها فطاحلة العلماء وقوافل الطلاب التي تنتشر في الآفاق لبث العلم، وهداية الناس، وإرشاد التائهين، ولا يضيرها بعد ذلك أنها أسست طريقة إذا كان القصد منها حفظ الدين من البدع وتيسير سبل نشر علومه، وتهذيب النفوس وتزكيتها.

وقد نوه في بعض مقالاته بما قام به المرابطون[٨٧] على سواحل الشمال الإفريقي من أعمال جليلة لصد الغزاة الإسبان، وردهم على أعقابهم، لا يحدوهم

---

(٨٦) المصدر نفسه، ج١، ص ١٢٦.

(٨٧) المرابطون: كلمة كانت تطلق قديما على جماعات المجاهدين الذين يرابطون على الثغور لحماية الدولة الإسلامية من أعدائها، ويقومون – في الوقت ذاته – بمهمة التعليم والتربية والإرشاد. وقد انتشر هذا اللفظ بشكل واسع في أنحاء المغرب العربي بعد قيام الدولة المرابطية على أساس الرباط، غير أن مفهومه تغير بتأثير الانحطاط وجمود الحركة العلمية، ومع مرور الزمن أصبح لفظ " مرابط " يطلق على كلّ ناسك أو زاهد، ثم على كلّ شيخ طريقة ذي سلطة روحية. (راجع: فيلالي، مختار الطاهر. نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني. دار الفن القرافيكي للطباعة والنشر – باتنة – الجزائر. ط١. د.ت. ص ٢٣ وما بعدها).

في ذلك مال أو جاه أو منصب، وإنما هو الجهاد في سبيل الله: «كانت الثغور الجزائرية المشهورة والمهجورة التي يتطرق منها العدو عامرة دائما وأبدا بالمرابطين، وهم قوم نذروا أنفسهم لله ولحماية دينه، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، لا يرزؤن الحكومات شيئا من سلاح ولا زاد، وإنما يتسلحون ويتزودون من أموالهم، ليجمعوا بين الحسنيين: الجهاد بالمال، والجهاد بالنفس»[٨٨].

كما أشاد في كتاباته أيضا بحركات المقاومة العنيفة التي قادتها بعض الطرق الصوفية في الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، والتي رفعت راية الجهاد منذ بداية الاحتلال، ولم تلن لها قناة حتى سقط أتباعها شهداء تحت وطاة القوة الطاغية للجيوش الفرنسية، وسياسة الإرهاب، والإبادة الجماعية والأرض المحروقة التي اتبعتها، ومن هؤلاء الأمير عبد القادر بن محيي الدين[٨٩] شيخ الطريقة القادرية، والذي تحدث عنه الإبراهيمي بإعجاب وإجلال عظيمين[٩٠]، والشيخ الحاج أحمد المقراني بطل ثورة ١٨٧١ بجرجرة، ومثله الشريف محمد الأمجد المعروف بـ (بوبغلة)، وللآفاطمة نسومر، والشيخ بلحداد وكلهم من أتباع الطريقة الرحمانية ومن مشائخها البارزين، ومحمد بن عبدالله شريف ورقلة،

---

(٨٨) الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص٦٤.

(٨٩) الأمير عبد القادر: أحد أبطال الجزائر الأماجد، ورجالاتها العظام. ولد في إحدى قرى وهران بالغرب الجزائري عام ١٨٠٧ م. حج رفقة والده الشيخ محيي الدين بن مصطفى، فمر في رحلة الذهاب بتونس ومصر، وفي طريق عودته زار كلا من بغداد ودمشق. وعند استيلاء الفرنسيين على مدينة وهران عام ١٨٣١ م، بايعه رؤساء القبائل أميرا عليهم، وولوه القيادة والقيام بأمر الجهاد، فخاض ضد الفرنسيين حربا ضروسا دامت سبعة عشر سنة، اضطرت المحتلين إلى الاعتصام بالسواحل لسنوات طويلة، غير أن الخيانات الداخلية، وانقطاع المدد من سلطان المغرب مولاي عبد الرحمان – بعد اتفاقه مع فرنسا على عدم إمداد الأمير بالمؤونة والسلاح – اضطرته إلى الاستسلام، فسجن في إحدى مدن فرنسا، ومنها غادرها إلى دمشق، حيث توفي عام ١٨٨٣ م، كان شاعرا أديبا، عالما، صوفيا (راجع: الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا. فؤاد صالح السيد المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – ١٩٨٥ – ص ٢١ إلى ٨٠)

(٩٠) راجع: الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج٤، ص ٣١٠ – ٣١١ – ٣١٢. والإبراهيمي، في قلب المعركة، ص٦٤ – ١٦٢ – ١٦٣.

والشيخ بومعزة، والشيخ بوزيان قائد ثورة الزعاطشة[٩١]، وهؤلاء هم أتباع طرق صوفية كانت تقوم على تحفيظ القرآن وتعليم الناشئة، ونشر الإسلام، وعندما تعرضت الأرض والعرض للعدوان قامت بدورها الذي يمليه عليها ضميرها الديني والوطني.

غير أن هذه الزوايا والطرق ذات التوجّه الديني السليم، والحس الوطني كانت قد شارفت على الاندثار حينئذ بفعل حرب الإبادة الثقافية المنظمة التي شنتها قوات الاحتلال الفرنسي على الثقافة العربية الإسلامية غداة الغزو، وما استتبع ذلك من إغلاق المدارس والمساجد، واتلاف المخطوطات، وإحراق المكتبات، وإعدام العلماء ومطاردة من بقى حيا منهم[٩٢].

واجتهد ساسة الاحتلال بعد هذه الحرب الضروس – وخاصة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر – في احتواء ما بقى من هذه الطرق، وتوجيهها لخدمة مصالحهم، أو لترويج البدع والخرافات، ونشر الروح التواكلية، وتكريس الشعور باليأس والاحباط في النفوس بعد أن نجحت الجيوش الفرنسية في القضاء على الثورات الشعبية، وأحكمت سيطرتها الكاملة على سائر المناطق في الجزائر. وبذلك خلت الساحة للمشعوذين والمبتدعة وهم

---

(٩١) سعد الله، د. أبو القاسم. الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت. لبنان. ١٩٩٢ م، ج١، ص٣٨٢ – ٣٨٧.

(٩٢) ومنهم: ابن العنابي (١٧٧٥ – ١٨٥٠) عالم وقاض، من فقهاء الحنفية. نفاه الفرنسيون بعد سنة من الاحتلال، عندما رفض تسليم المساجد لجنود الاحتلال لاتخاذها مستشفيات، وخوفا من إعادته تنظيم صفوف المقاومة الشعبية. توجه إلى الاسكندرية حيث ولاه محمد علي باشا وظيفة الفتوى الحنفية إلى أن توفي. (راجع: سعد الله، د. أبو القاسم. محمد بن العنابي. دار الغرب الإسلامي. ببيروت – ١٩٩٠) وابن الكبابطي (ت ١٨٦٠ م) عالم من فقهاء المالكية، ولي الإفتاء بمدينة الجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي، عارض الاستعمار بشدة عندما ضمّ الأوقاف الإسلامية إلى أملاك الدولة، فنفي خارج البلاد عام ١٨٤٣ م، واستوطن الإسكندرية، وتوفي بها (راجع: سعد الله. محمد العنابي. ص٩. و: سعد الله. أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر – المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ١٩٨٥ – و: نويهض، معجم أعلام الجزائر. ص٢٧٣).

الذين عدهم الإبراهيمي استعمارا روحيا خطيرا يستوجب الاهتمام بتخليص المجتمع منه، وهذه هي الصورة القاتمة التي كانت موجودة والتي لم يملك إزاءها سوى معاداتها ومحاربتها.

خامسا: أسباب ثورة الإبراهيمي على الطرق الصوفية

وإن قراءة متأنية لكتابات الإبراهيمي تكشف لنا عن جملة من الدوافع التي أدت به إلى إعلان المواجهة السافرة مع الطرقية، وكشف حقيقتها، وفضح أساليبها، ونقد ممارساتها، وبيان الدور الخطير الذي قامت به لتدمير المجتمع الجزائري على جميع المستويات، ومن أهمها نذكر: الانحرافات العقدية والخلقية، وتمزيق شبكة العلاقات الاحتماعية، والنزعة الاستغلالية، والارتماء في أحضان الاستعمار الفرنسي، وفيما يلي بيان وتفصيل لهذه الدوافع وأبعادها المختلفة:

أ – نقد الانحرافات العقدية

إن من أخطر الأدوار التي قامت بها الطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر هو إفساد عقيدة الجزائريين بنشر مظاهر الشرك القولي والفعلي والترويج لها. ولعل أهم أركان العقيدة التي مسها الفساد والتشويه، ولحقها التحريف والتزييف عقيدة التوحيد، والنبوة، والقضاء والقدر.

فقد كان مشائخ الطرق الصوفية يتسلطون على قلوب وعقول العامة، بما أحاطوا به أنفسهم من التقديس والتعظيم، وبما كانوا ينشرونه في أوساط الناس من معتقدات منحرفة لا تختلف كثيرا عما كان يدعيه أرباب الصوفية القدماء، ومن ذلك ادعاء صفات الألوهية من القدرة على التصرف في الكون وعلم الغيب، والقدرة على الإغناء والإفقار، وإدخال الجنة والإنقاذ من النار، وشفاء الأمراض، وغيرها من الانحرافات العقدية الخطيرة، كادعاء الولاية، والقدرة على الإتيان بالكرامات والخوارق، وامتلاك حق الشفاعة، وغيرها من مظاهر الشرك المختلفة[٩٣] التي أسهب رفيق الإبراهيمي في الاصلاح مبارك الميلي في

(٩٣) راجع: الميلي، "رسالة الشرك ومظاهره".

الحديث عنها، وضمنها كتابه «رسالة الشرك ومظاهره» الذي نشر على شكل حلقات في جريدة البصائر الأولى. وقد ذهب أحمد توفيق المدني إلى اعتبار هذه الانحرافات العقدية التي أحدثتها الطرق الصوفية المنحرفة وروجت لها في أوساط الشعب، وثنية جديدة، أعادت المجتمع الجزائري إلى ظلمات الجاهلية الأولى، وعمقت الهوة بينه وبين عقيدة التوحيد الصافية «وآل أمر الكثير من هذه الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام، ما أنزل الله بها من سلطان، وأصبح شيخ الطريقة أو المرابط في كثير من النواحي يتصف بأوصاف الربوبية، فهو الذي يعطي، وهو الذي يمنع، وهو الذي يقبض، وهو الذي يبسط، هو منبع كل خير، ومصدر كل شر، وترى بعض السفهاء يقسم لك بالله جهد أيمانه ليقنعك بأمر ما، فإن أنت استحلفته بشيخ طريقته كان الموت أهون عليه من أن يقسم به فاجرا، فأصبح شيخ الطريقة أو صاحب الضريح أكبر مكانة في نفس السواد المغفل من الله جل جلاله»(٩٤).

وكانت هذه الانحرافات العقدية أهم سبب دفع الإبراهيمي إلى إعلان ثورته الشديدة على مختلف الجبهات ضد الطرق الصوفية المنحرفة، فكشف حقيقة هذه الانحرافات، وبيَّن خطورتها على عقيدة الأمة من خلال المقارنة بين رسالة جمعية العلماء السلفية التي تدعو إلى العودة إلى مصادر الهداية الإسلامية الصحيحة، وفهم السلف الصالح، وبين دور الطرق الصوفية التي ما فتئت تروج لمختلف مظاهر الشرك والوثنية «نريد لهذا العامي أن يؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبالكعبة قبلة، وبالقرآن إماما، وبمحمد رسولا، وأن لا يرجو النفع إلا من ربه، ولا يستدفع الضر إلا به، وأن لا يستعين بعد الأسباب الكسبية إلا بقوته،وتريدون منه أن يؤمن.. بأنكم أولياء الله، وإن استبحتم الحرمات وركبتم المحرمات، وأن يشرككم مع الله في الدعاء، أو يدعوكم من دونه، وأن يلتجيء إليكم حتى فيما هو من خصائص الألوهية، وأن يشد الرحال لبيوتكم كما يشدها لبيت الله... أليس فيكم من يبيع الأولاد للعقيم، ويبيع الراحة للسقيم؟»(٩٥).

---

(٩٤) المدني، كتاب الجزائر، ص ٣٧٦.

(٩٥) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ٤٤.

وتتجلى هذه الثورة في موضع آخر عندما يوجه انتقاده الشديد لزعماء الطرقية الذين يروجون لهذه المعتقدات الضالة في أسلوب تهكمي مشبع بسخرية مرة «أليس فيكم من يقول في صراحة: إنه يتصرف في الوجود، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ثم ينحل هذا التصرف غيره لتكون له أسوة؟ إن وجودا يكله الله لتصرفكم لأهون وجود، وهل بلغ هذا الكون البديع من الهوان على الله أن يكله إلى تدبيركم أيها الحمقى؟ ونحن نراكم أعجز الناس عن تدبير (خبزة)، فلا تبلغونها إلا بدفع دينكم ثمنا لها»(٩٦).

ولعلنا لانجد مثلا يوضح هذه الانحرافات العقدية عند الطرق الصوفية مثل " صلاة الفاتح" التي اشتهرت بها الطريقة التيجانية، والتي يدعي أتباعها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد خص بها شيخهم التيجاني ولقنه إياها بنفسه، والتي يقول عنها صاحبها أبو العباس التيجاني «سألته صلى الله عليه وسلم عن فضلها فأخبرني أولا بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانيا أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون، ومن كل ذكر، ومن كل دعاء كبير أو صغير، ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار... وإن صلاة الفاتح بستمائة ألف صلاة، وكل صلاة من الستمائة ألف صلاة بأربعمائة غزوة»(٩٧).

ويبالغ التيجاني في تعظيم صلاة الفاتح، ويرفعها إلى أعلى مقامات القدسية، فقد ورد في الإفادة الأحمدية قوله «نهاني الرسول صلى الله عليه وسلم عن التوجه بالأسماء الحسنى، وأمرني بالتوجه بصلاة الفاتح»(٩٨)، ولا يتورع عن مساواتها بالقرآن، بل وتفضيلها عليه في أحيان كثيرة «من لم يعتقد أن صلاة الفاتح من القرآن لم يصب الثواب فيها»(٩٩).

---

(٩٦) المصدر نفسه – ج١ – ص ٤٤.

(٩٧) برادة، جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، ج١ – ص ١١٤-١١٥.

(٩٨) الإفريقي، الأنوار الرحمانية لهداية الفرقة التيجانية، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والإرشاد. السعودية. دت – ص ٣٠.

(٩٩) المرجع نفسه – ص ٢٨.

وقد تناول الإبراهيمي صلاة الفاتح وما تحمله في ثناياها من معتقدات فاسدة، تكرس ضلال المسلمين، وتوسع الهوة بينهم وبين القرآن، وتسهم في تشويه العقيدة وتعطيل أحكام الله تعالى،ويتجلى ذلك في قوله «وإذا كان هذا القرآن متعبدا بتلاوته اللفظية وهو ستون حزبا، فإن تلاوة إنجيل التيجاني القصير وهو (صلاة الفاتح) مرةواحدةتعدل ستةآلاف ختمة من القرآن. وإذا كان القرآن قدشرع الغزو وهو من أحمز الأعمال وأشقها فإن تلاوة هذا الإنجيل التيجاني مرة واحدة تعدل آلاف الغزوات، وهي لا تقوم إلا على حركة اللسان من غير اقتحام للميدان، ولا تعرض للرمح والسنان. وإذا كان القرآن يفرض الحج وفيه ما فيه من مصاعب ومتاعب فإن إنجيل التيجاني تعدل تلاوته آلاف المرات من الحج، ومئات الآلاف من الصلاة، كما هو منصوص في كتب التيجاني وكتب أصحابه. فأي تعطيل للقرآن أعظم من هذا؟ وأي تهويل لشعائر الإسلام ونقض لحكمها أكبر من هذا؟»[١٠٠].

ومن مظاهر هذه الانحرافات العقدية أيضا: ميل العامة إلى زيارة الأضرحة والقبور والقباب، وافتتانها بالذبح عندها وتقديم القرابين، وشد الرحال إليها من مكان إلى مكان، والاعتقاد بقدرة الأولياء المدفونين بها على التصرف في العالم، وقضاء الحاجات، وصارت هذه القبور والأضرحة – لشدة تقديس الناس لها – أوثانا، يصلي عندها طلاب الحاجات المستغيثون بالأموات، ويسجدون لها، ويتبركون بجدرانها وأبوابها، وتجاوز تعظيمهم للقبور إلى ما يحيط بها من أشجار وأحجار، يتمسحون بها، ويعلقون عليها الخرق والخيوط، ويعطرونها بكل أنواع العطور والرياحين[١٠١]، رغبة في رضاء الولي وطمعا في استجابته لدعائهم وقضائه لحاجاتهم.

ويشير الإبراهيمي إلى انتشار هذه الظاهرة بين العامة وما يصحبها من شائعات ضالة توجب على الإنسان زيارة هذه المقامات والأضرحة، وتعده بعظيم الأجر والثواب، مؤكدا أن مشايخ الطرق الصوفية المنحرفة هم القائمون

(١٠٠) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ١٠٣.
(١٠١) راجع: الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، ص ٢٢٧-٢٢٩.

على هذه الموجة من الاعتقادات الفاسدة لتوسيع نفوذهم، ومد سلطانهم «أليس من الشائع في معتقدات العامة التي هي من وضع أيديكم أن من زار مقام فلان ثلاث مرات كتبت له حجة؟ وهل في التعطيل لأركان الدين أشنع من هذا؟ لكم الويل ! أكل هذا في سبيل إشباع بطونكم؟»[١٠٢].

ب – نقد الانحرافات الخلقية

ومن الأسباب التي دفعت الإبراهيمي – أيضا – إلى إعلان الثورة على الطرق الصوفية المنحرفة، الانحرافات الأخلاقية التي تفشت بين مشائخ الطرقية وبعض مقدميهم ومريديهم، حيث اشتهر كثير منهم بانحلالهم الخلقي، وتهتكهم، واستهتارهم بالأخلاق العامة، وارتكابهم للمحرمات، وتحولت بيوتهم وزواياهم إلى قلاع تموج بالفساد، وتطفح بالمنكرات، وتفوح منها روائح الفضائح الأخلاقية من شرب للخمور، وزنا، واختلاط فاحش، وزردات صاخبة، ورقص وميوعة، ويذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس أن بيوت بعضهم كانت تزخر بأنواع الخمور المعتقة التي لا توجد في أعظم الديار الأوربية[١٠٣]. ويروي أحدهم أنه شاهد في أواخر الأربعينات الشيخ عدة بن تونس شيخ زاوية سيدي عدة في معسكر يترنح من شدة السكر في شوارع العاصمة، بينما أتباعه من العامة يقدسونه ويعتقدون فيه الولاية والصلاح ويتسابقون إلى نيل رضاه، بل إنهم يقبلون سيارته تبركا[١٠٤]. «وما ضر هؤلاء الأشياخ – وقد دانت لهم الأمة، وألقت إليهم يد الطاعة، ومكنتهم من أعراضها وأموالها – أن يأخذوا أموالها سارقين، ثم يورثونها أولادا لهم فاسقين، يبددونها في الخمور والفجور، والسيارات والملابس والقصور»[١٠٥].

---

(١٠٢) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ٤٥.

(١٠٣) جريدة المنتقد – ع١٣ – ٢٤ سبتمبر ١٩٢٥.قسنطينة. الجزائر.

(١٠٤) الخطيب، أحمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٥ م. ص ٦٠.

(١٠٥) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ١٢٥.

والزردة[١٠٦] التي يجمع فيها الشيخ أعدادا ضخمة من أتباعه ومريديه، وتذبح فيها الذبائح، وتعد الأطعمة، وتضرب الدفوف، ويعزف الناي، ويعلو الصخب، ويختلط الرجال بالنساء، وتهتك الأعراض، وترتكب المحرمات، وتشرب الخمور، وينتاب القوم حالة من الهستيريا، فيختلط الحابل بالنابل، نموذج حي لهذه التجاوزات والجرائم الأخلاقية التي لا يراعى فيها شرع الله، وهذه الزردات هي التي أطلق عليها الإبراهيمي إسم «أعراس الشيطان»، «هذه الزَّرَدْ التي تقام في طول العمالة الوهرانية وعرضها هي أعراس الشيطان وولائمه، وحفلاته ومواسمه، وكل ما يقع فيها من البداية إلى النهاية كله رجس من عمل الشيطان، ألم تر إلى ما يركب فيها من فواحش ومحرمات؟ وما يهتك فيها من أعراض وحرمات؟ كل ذلك مما يأمر به الشيطان...»[١٠٧].

جـ – نقد تفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية

ولم يقف تأثير الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري عند تشويه حقائق الدين، وإفساد الأخلاق، بل تعداه إلى الحياة الاجتماعية، حيث قامت بدور خطير في تفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية، وزرع بذور الفرقة والتعصب، وإثارة البغضاء، والأحقاد بين الناس وتمزيق المجتمع إلى مناطق نفوذ تتقاسمها هذه الطرق، وتمارس فيها سلطتها الروحية على الناس لاستغلالهم واستعبادهم.

ومما عمق هذه التفرقة، ووسع رقعتها احتداد الخلافات والخصومات بين بعض مشائخ الزوايا حول المصالح الشخصية، والمكانة الاجتماعية، وبعض القضايا التافهة المتعلقة بطقوس الطريقة. وكان لهذه الخلاقات أثرها السيء في

---

(١٠٦) الزردة: وتعني: اجتماع عدد معين من المريدين والأتباع عند قبر أحد الشيوخ الذي يعتقد صلاحه، ويقام احتفال خاص يتم فيه ذبح الذبائح وإطعام الطعام، وهي تقام – بشكل عام – مرتين في السنة، الأولى في فصل الخريف عند الاستعداد للحرث رجاء سقوط الأمطار، والثانية في فصل الربيع، رجاء حفظ الغلة. وترتكب فيها كثير من المنكرات والمعاصي، منها: الذبح باسم صاحب الضريح، والرقص المختلط على دقات الطبول وأصوات المزامير، وغيرها (راجع: الميلي، رسالة الشرك ومظاهره. ص ٢٣٨ و مابعدها).

(١٠٧) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص ٣٥٥.

الأتباع الذين يعتقدون في شيخهم العصمة، وينزهونه عن الخطأ مما يؤدي – في أحيان كثيرة – إلى قيام مشاحنات بين أتباع الطرق المختلفة كل يدعي الحق لشيخه، وغالبا ما تخلق هذه الخصومات أحقادا وحزازات تسهم في تمزيق أواصر المحبة والتضامن بين أبناء الوطن الواحد، وتقلص من فرص التقارب والالتقاء. ويشير "عبد الملك مرتاض" إلى هذه الظاهرة فيقول:«وكان لكل مذهب صوفي شيخه الذي يكبره أشياعه أعظم الإكبار... وكان العوام يتنافسون فيما بينهم ويتفاخرون بشيوخهم، فيقع التعصب، ويفسد الجو الاجتماعي كل فساد، وكان هذا الصنيع كثيرا ما يؤدي إلى وقوع خصومات بين أشياع هذه الزاوية وتلك، أو بين أنصار هذا الشيخ وذاك: كل يزعم أن البركة في صاحبه أكثر، وأن طريقته الصوفية هي المثلى»(١٠٨).

وقد تحدث الإبراهيمي عن الآثار الوخيمة التي طبعت بها الطرق الصوفية المجتمع الجزائري، وصور مبلغ الفساد الاجتماعي الذي أحدثته فيه، واتهمها بالضلوع في تمزيق روابط الأخوة بين أفراده وتفكيك ما بينهم من علاقات الود والتراحم، وتقسيمهم إلى فرق متصارعة «إنهم بعد أن أفسدوا فطرتها، وأماتوا ما غرسه الإسلام فيها من فضيلة، وفككوا ما أحكم بينهامن روابط أخوة، وراضوها على الذل والمهانة والخضوع... فرقوها فرقا، وقسموها إلى مناطق نفوذ يتزاحمون على استغلالها واستعمارها، وأغروا بينها العداوة والتضريب، والبغضاء»(١٠٩).

وكانت الطرق الصوفية المنحرفة تغذي ظاهرة التفرق هذه بما كانت تربي عليه مريديها من النظرة الأحادية الضيقة التي تقدس شيخ الطريقة وترفض ما عداها رفضا قاطعا يعززه الجهل الذي قد يصل بصاحبه إلى تكفير من يخالفه في الطريقة ومقاطعته، والتمادي في معاداته وبغضه، لاعتقاد كل أتباع طريقة: «أنهم أهدى سبيلا من أتباع بقية الطرق، وأن طريقتهم تضمن لسالكها الغنى

(١٠٨) مرتاض، عبد المالك، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ١٩٨٣ م، ص ٣٩.

(١٠٩) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ١٠٤.

في الدنيا، وحسن الخاتمة عند الموت، وإن قتل النفس التي حرم الله بغير حق»[١١٠].

ويعدد الإبراهيمي بعض مظاهر هذا التعصب الأعمى للطريقة، والذي ترك ندوبا عميقة في المجتمع الجزائري، وأسهم في زيادة آفاته وأمراضه فيقول «إن هذه الأخوة القاطعة تفرض عليهم أن يبغضوا كل من لم يتصل معهم بحبل الشيخ وينابذوه، ولا يجتمعوا معه ولو في العبادات الشرعية كالصلاة وقراءة القرآن، أو البدعية، كحلقهم الخصوصية، بل يبلغ الغلو ببعضهم (كالتيجانية) أن لا يصلوا خلفه ولا يصاهروه»[١١١].

وكان العهد والميثاق الذي يأخذه الشيخ على مريديه عند انخراطهم في الطريقة لأول مرة صورة أخرى من صور هذا التعصب، إذ يصبح المريد ملتزما – بمقتضى هذا العهد – أن يظل طول عمره مطيعا للشيخ، خادما لزاويته، معاديا لما عداها، ويحكم عليه بالردة والكفر إذا فارق الطريقة كما هو الحال عند التيجانية التي ألف أحد أتباعها كتابا في هذا المضمار سماه " تنبيه الناس على شقاوة ناقضي بيعة أبي العباس"[١١٢]، وهذا ما أشار إليه الإبراهيمي منكرا على الطرق الصوفية هذا التصور الفاسد «والحقيقة أن الطرقيين أرادوا أن يصبغوا طرقهم بالقدسية الدينية، فانتحلوا لها هذه الأباطيل، وأعطوها خصائص الدين كلها. ألم تر أنهم يعدون الخروج من طريقة ولو إلى طريقة أخرى كالارتداد عن الدين يموت فاعله على سوء الخاتمة قبحهم الله: فما هو إلا خروج من ضلالة إما إلى هدى وإما إلى ضلالة أشنع»[١١٣].

فإذا علمنا – بعد ذلك – أن الجزائر كانت تعج بالطرق الصوفية المنحرفة أدركنا مبلغ الضرر الذي ألحقته بشبكة العلاقات الاجتماعية للشعب الجزائري الذي زاد من وطأة تسلطها عليه جهله وغفلته. يقول الإبراهيمي – في معرض

---

(١١٠) المصدر نفسه – ج١ ص ٦٤.
(١١١) المصدر نفسه – ج ١ – ص ١٠٤.
(١١٢) الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، ص ٢٧٣.
(١١٣) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ١٠٨-١٠٩.

رده على رجال الطرق الصوفية الذين اتهموا جمعية العلماء بأنها هي التي فرقت الأمة بعد أن أثمر الإصلاح وبدأ الناس ينفضون من حول الشيوخ المبتدعة ويلتفون حول العلماء المصلحين –: «ليت شعري متى كانت هذه الأمة مجتمعة حتى يقول قائل: إن الجمعية فرقتها؟ – وأنى لها أن تجتمع؟ وإن أمامها في كل طريق ناعقا ينعق باسم طريق، وداعيا يدعو إلى التفريق؟، بل كيف تجتمع وللشيوخ فيها ما للذئاب الضارية في قطيع الغنم؟، أم كيف تجتمع والشيوخ قد قسموها إلى مناطق نفوذ، وأحاط كل شيخ رعيته بأسوار منيعة من الترغيب والترهيب»[١١٤].

د – نقد النزعة الاستغلالية:

لقد كانت النزعة الاستغلالية لدى مشائخ الطرق الصوفية علامة بارزة على انحرافهم، حيث استغلوا نفوذهم الروحي لدى الشعب الجزائري، فأثروا على حسابه ثراء فاحشا. وقد تعددت المصادر التي كانوا يحصلون منها على الأموال: فمنها الإعانات التي يقدمها الأتباع من الأثرياء في شكل نقود وبضائع (كالحبوب والزيوت) ومواد غذائية وحيوانات، ومفروشات، وغيرها. ومنها: الغفارة[١١٥] التي هي في حقيقتها ضريبة يؤديها سنويا كل من يعتقد في الشيخ القدرة على جلب المنفعة، ودفع المضرة، وهي تتضمن كذلك الإبل والبقر والغنم والصوف، والسمن والعسل وغيرها، وكان العامة يحرصون كل الحرص على أداء الغفارات، طمعا في رضى الشيخ، وخوفا من التقصير في حقه، ويقابل هذا الحرص – في أحيان كثيرة – إهمال لحقوق الناس، وحق الله، كأداء الأمانات والزكاة[١١٦].

---

(١١٤) المصدر نفسه – ج١ – ص ٦٤.

(١١٥) الغفارة: وهي عبارة عن ضريبة سنوية يؤديها من يعتقد النفع والضر في شيوخ الطرقية، إيمانا منه بقدرتهم على التحكم في الأقدار، ومعرفة الغيب، والتصرف في مجرى الأحداث. ويلتزم بها صاحبها طوال حياته، وتصبح ملزمة لورثته من بعده، يؤدونها هم – أيضا – لورثة الشيخ (راجع: الميلي. رسالة الشرك ومظاهره.ص٢٥١ ومابعدها)

(١١٦) الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، ص ٢٥٢.

ومن هذه المصادر أيضا أموال الأوقاف التي يحبسها المريدون على الزاوية وهي تختلف باختلاف المتبرع بها، فقد تكون أراض زراعية، أو حقولا للأشجار المثمرة، والغلال، كالتين والزيتون، والحيوانات الحلوبة، والمحلات التجارية وغيرها[١١٧]. ومنها كذلك النذر والوعادي[١١٨] (جمع وعدة) التي يقدمها الزوار من الأتباع والمحبين، وهي تتوارد على الزاوية طوال أيام السنة، وتأخذ أشكالاعديدة: فقد تكون نقودا كما تكون مواد غذائية وألبسة وأغطية ومفروشات تختلف كمياتهاومقاديرها باختلاف الإمكانات المادية للزائرين[١١٩].

وبذلك تحولت الطرق الصوفية إلى شركة استغلالية جشعة، بعيدة كل البعد عن التصوف الذي يدعي أصحابه الزهد والتقشف، تتفنن في ابتزاز أموال الشعب والاستكثار من المتاع والبحث عن الجاه والسلطان: «ومبنى هذه الطرق في ظاهر أمرها وباطنه على حيوانية شرهة، لا تقف عند حد في التمتع بالشهوات، والانهماك في اللذائذ، واحتجان الأموال عن طريق الحرام والحلال، واصطياد الجاه، وحب الظهور، والاختلاط بأهل الجاه، وإيثارهم، والتزلف إليهم»[١٢٠].

وقد أسهب الإبراهيمي في تصوير مظاهر هذا الابتزاز والاستغلال وأنكر على شيوخ الطرق الصوفية هذا السلوك الشائن، وعاب عليهم تكالبهم على الدنيا، واستغلال سذاجة العامة وغفلتهم، لامتصاص دمائهم، ومن أساليبهم الخبيثة في ذلك: الإكثار من البدع والعادات، والمواسم والمناسبات، التي يزار

---

(١١٧) بوعزيز، يحي، مجلة الثقافة – "أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين"، ص ٢٢.

(١١٨) الوعادي: جمع، مفرده: وَعْدَةْ. وهي مأخوذة من اللفظة العربية "وَعَدَ"، وتكاد تكون مرادفة لمعنى النذر. وهو أن يعد أحدهم شيخ الطريقة بأن يهبه شيئا ما بقيمة معينة إذا شفي له مريض، أو عاد غائب، أو ولد له ولد، أو نجح في مشروع، أو ربح في تجارة، إلى غير ذلك. وهي من مظاهر الشرك العلني التي كانت شائعة في المجتمع الجزائري. (راجع: الميلي، رسالة الشرك ومظاهره. ص٢٤٥ – ٢٤٧).

(١١٩) المصدر نفسه – ص ٢٣.

(١٢٠) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ١٠٠.

فيها الشيخ، وتقدم له فيها النذور والهدايا والقرابين، ونشروا الخوف في النفوس من قطع هذه العادات أو التراجع عنها، وإلا حلت نقمة الشيخ، ولحق بمن تباطأ في العطاء الويل والثبور: «أليس فيكم من يهدد المسلم بخراب البيت وموت الأولاد وهلاك الحرث والماشية إذا هو قطع عادة أو قصر في شيء من رسوم الخدمة؟»(١٢١). ومن الأمثلة الحية على ذلك أن شيخ الطريقة القادرية: «كان يملك جنة فيها حوالي ثلاثين ألفا من النخيل في وادي سوف... وكل أولئك عطاء من الذين كانوا يبتغون دخول الجنة في موكبه»(١٢٢).

كما تحدث عن التسخير الفظيع للمريدين واستغلالهم في خدمة الشيخ مجانا، طمعا في التدرج في مراتب الوصول، حيث كان شيوخ الطرقية يفرضون على مريديهم الانقطاع لخدمتهم، فيحرثون الأرض، ويحصدون الزرع ويرعون الأغنام، ويسقون الأشجار، لتحصل لهم البركة، ويرتقون إلى مقام العارفين بالله، وقد استنكر الإبراهيمي هذه المظاهر، وأشار إليها في سخرية مرة في معرض حديثه عن الطريقة العليوية قائلا: «فإذا كان هذا القرآن يفيد معرفة الله – وهي أعلى مطلب – فالقوم عارفون بالله وإن لم يدخلوا كُتَّابًا ولم يقرأوا كِتَابًا، وكل من ينتسب إليهم فهو عارف بالله بمجرد الانتساب، أو بمجرد اللحظة من شيخه... وكان من تنقيحاتهم المضحكة تحديد مراحل التربية (الخلوية) لمعرفة الله بثلاثة أيام (فقط لا غير)، تتبعها أشهر أو أعوام في الانقطاع لخدمة الشيخ من سقي الشجر، ورعي البقر، وحصاد الزرع، وبناء الدور، مع الاعتراف باسم الفقير، والاقتصار على أكل الشعير»(١٢٣). وكثيرا ما تفرض هذه الخدمة على الفقراء الذين لا يملكون من متاع الدنيا سوى قوتهم الجسمية.

أما أقوى مظاهر الاستغلال التي عرفت عن هؤلاء المشايخ، فهي سطوهم على الزكاة، واحتكارها والافتاء بأنهم أولى بها من غيرهم، فكان العامة

---

(١٢١) المصدر نفسه – ج١ – ص٤٤.

(١٢٢) ابن نبي، مالك، مذكرات شاهد القرن الطفل، ترجمة: مروان القنواتي، دار الفكر دمشق‌سورياط١. ١٩٦٩ م – ص ٣٢٤.

(١٢٣) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ١٠٢.

يجلبونها إليهم من بلاد بعيدة، ويؤثرونهم بها على الأقارب والفقراء والمساكين «وعندهم أن حق الشيخ قبل حق الزوجة والأولاد والآباء والأجداد، وحق الشيخ في المال قبل حق الفقير والمسكين، بل إنهم يصرفون لهم الزكاة كاملة، وينقلونها لأجلهم من بلد إلى بلد، فأين حكمة الله في الزكاة؟ وأين مصارفها التي بينها القرآن؟»[١٢٤]، ويروي مالك بن نبي في مذكراته أن شيوخ الطرق الصوفية كانوا يقصدون المناطق التي يكثر فيها أتباعهم عندما يحين وقت أداء الزكاة في مواكب ضخمة وفاخرة ليجبوها «أما السكان فكانوا ما يزالون خاضعين للروح " المرابطية " يستقبلون ممثليها استقبالا فخما رائعا عندما كانوا يؤتون زكاتهم كل عام بعد أن يحول الحول على الأموال. وهكذا كان الشيوخ " المرابطيون " يأتون على كل زكاة المنطقة التي كانت غنية جدا وكريمة جدا»[١٢٥].

وقد ثار الإبراهيمي على هذه المظاهر وغيرها ثورة قوية، وكان أكثر ما حز في نفسه أن شيوخ الطرق الصوفية يمارسون هذه الأساليب الاستغلالية تحت غطاء الدين، وستار التقوى، وهو ما لم يستسغ السكوت عنه، وعده لصوصية من أرذل أنواع اللصوصية وأقذرها، إذ تتمسح بالدين الحنيف لتقضي أوطارها ومصالحها «وبالجملة فهذا الطراز الطرقي الذي أدركناه من آباء وأبناء يجمعهم قولك طلاب دنيا وعباد شهوات، ولو أكلوا أموال الناس بالباطل من غير أن يتخذوا الدين شباكا لهان أمرهم على الناس، ولاتقوهم بما يتقون به اللصوص، ولو كلناهم نحن إلى القوانين والوزعة، فأما أن يعبثوا بالدين كل هذا العبث وبما حرم الله من أعراض المسلمين وأحوالهم ثم يريدون أن نسكت عنهم كما سكت العلماء من قبلنا فلا والله ولا كرامة»[١٢٦].

وطغى الجهل على شيوخ الطرقية في آخر عهدها، واستحوذ عليهم الطمع، واستناموا إلى ما هم فيه من الدعة والرخاء والرفاهية، والنفوذ الشعبي الواسع،

---

(١٢٤) المصدر نفسه – ج١ – ص ١٠٤.
(١٢٥) ابن نبي، مذكرات شاهد القرن الطفل، ترجمة: مروان القنواتي – ص ٣٢٣.
(١٢٦) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ١٠٩.

فلم يعد يهمهم سوى المحافظة على هذه المظاهر، وتكريس سلطانهم وتوطيد أركانه في نفوس العامة. ولعل أوضح دليل على ذلك ما جاء في الفصل الثامن من قانون الجمعية الطرقية التيجانية والذي يشير إلى غايتها من الوجود، وفيه أن «غاية هذه الجمعية أولا المحافظة على نفوذ الزوايا والطرق، وعلى شهرتها وسمعتها ومكانتها»(١٢٧). ففي هذا البند شرح موجز لفلسفة وجود الطرق الصوفية والتي تقوم على النفوذ والاستغلال، والبحث عن الجاه والسلطان.

وقد تناول الشيخ عبد الحميد بن باديس هذه العبارة بالانتقاد الشديد وعاب على رجال الطرق في الجزائر إهمالهم لأمهات القضايا الدينية والوطنية التي تهم الشعب، وحصرهم أهداف تأسيس الجمعيات فيما يخص مصالحهم المادية الضيقة «النفوذ ! والشهرة ! والمكانة ! فهل أبقوا من مظاهر السلطان والسيادة والكبرياء والعظمة والاستيلاء شيئا؟ هذه هي غايتهم: أن يبقوا سادة على الناس، وأن يُبقوا الناس مستعبدين لهم: أين هي التربية؟ أين هو التعليم؟ أين هو نشر الإسلام؟ أين هي مقاومة المفاسد والشرور؟ أين هو الوعظ والارشاد؟، هذه كلها أمور لاذكر لها عندهم، لأنهم يخافون منها على سلطانهم، ويخافون من ذكرها على أنفسهم ممن يبتغون عندهم ما يبتغون»(١٢٨).

هـ – نقد عمالة الطرق للاستعمار

وكان تواطؤ الطرق الصوفية المنحرفة مع الاستعمار، وموالاتها له وخيانة القضية الوطنية سببا آخر من أسباب ثورة الإبراهيمي عليها، حيث ارتمت في أحضانه، ودخلت تحت حمايته، ونذرت نفسها لخدمته. وقد أدرك الاستعمار الفرنسي مدى النفوذ الشعبي الذي تتمتع به الطرق الصوفية، ولمس في مشائخها حب المال والجاه، فاستمالهم وسعى إلى كسب ودهم، وقرَّبهم منه، وأغدق عليهم المكافآت والنياشين، رغبة في استخدامهم كأداة عميلة تساعده على تكريس سيطرته من أيسر سبيل، ويذكر التاريخ أن شيخ الطريقة

(١٢٧) ابن باديس، جريدة البصائر: "الزوايا وغاياتها"، ع ١٤٨ – ٢٢ ذو القعدة ١٣٥٧هـ – ١٣ جانفي ١٩٣٩م. الجزائر.
(١٢٨) المرجع نفسه.

السنوسية قد حصل على نيشان (ليجيون دونور Légion d'honneur)، وحصل شيخ زاوية عيون سيدي ملوك على نيشان مماثل[١٢٩]، وغيرهما كثير ممن أغرتهم سلطات الاحتلال بهذا التكريم الكاذب، واشترت ضمائرهم به.

ويروي أحد المؤرخين – في هذا الإطار أيضا – أن الحكومة الفرنسية كانت تعظم زاوية من زوايا الطرق أكثر من تعظيمهالجنودها وقوادها، وأنها تعتقد أن الذي يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا[١٣٠]، وقد أكد الإبراهيمي هذه الحقائق عندما أورد مقولة لأحد القادة العسكريين الفرنسيين الذي قال: «إن كسب شيخ طريقة صوفية أنفع لنا من تجهيز جيش كامل، وقد يكونون ملايين، ولو اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال والجيوش لما أفادتنا ما تفيده تلك الكلمة الواحدة من الشيخ. على أن الخضوع لقوتنا لا تؤمن عواقبه لأنه ليس من القلب، أما كلمة الشيخ فإنها تجلب لنا القلوب والأبدان والأموال أيضا»[١٣١].

وهذا الولاء المطلق للاستعمار هو الذي جعل هذه الطرق الصوفية تقف بنفوذها الواسع وثرائها العريض في وجه الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار. وهو ما جعل الإبراهيمي يؤكد أن الدور الخياني الذي لعبته هذه الطرق كان من أكبر العوامل التي أعانت الاستعمار على بسط سيطرته على البلاد، وإحكام قبضته على العباد «ابحثوا في تاريخ الاستعمار العام واستقصوا أنواع الأسلحة التي فتك بها في الشعوب، تجدوا أفتكها في الاستعمال هذا النوع الذي يسمى (الطرق الصوفية) وإذا خفي هذا في الشرق، أو لم تظهر آثاره جلية في الاستعمار الانجليزي، فإن الاستعمار الفرنسي مارست قواعده في الجزائر وفي شمال إفريقيا الغربية وفي إفريقيا الوسطى إلا على الطرق الصوفية وبواسطتها»[١٣٢].

---

(١٢٩) كحول، محمود، التقويم الجزائري، ص ١٨١-١٨٤.

(١٣٠) الجندي، أنور، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة. مصر. ١٩٦٥ م – ص ٥٢.

(١٣١) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج٤ – ص ٣٤٣.

(١٣٢) المصدر نفسه – ج١ – ص ١٠٠.

وهو يعزز هذه الحقائق بماجرى في الجزائر في سنوات الاحتلال الأولى عندما هب المجاهدون يدافعون عن الأرض والعرض ضد الغزاة، فتصدى لهم هؤلاء المشائخ يثبطون العزائم، ويعرقلون مسيرة الجهاد، ويذكر – في هذا الإطار – «أن أول من خرج عن جماعة الأمير عبد القادر الجزائري في أيام جهاده شيخ طريقة معروف[١٣٣]، وأن من أكبر أسباب هزيمته استعانة فرنسا عليه بمشائخ الطرق الصوفية، وإعلان كثير من أتباعهم الخضوع لفرنسا. فهل نحتاج بعد هذا إلى دليل؟ وإن تاريخ تلك الوقائع لم يزل مداده طريا، ومازال الاستعمار بالجزائر يسمى هؤلاء المشائخ (أحباب فرنسا)»[١٣٤].

ولعل أكبر جريمة اقترفها شيوخ الطرقية في حق الشعب الجزائري الغارق في جهله وغفلته إقناعه بأن الاحتلال الفرنسي قضاء وقدر، وأن مسالمته والرضى به إيمان بقضاء الله النافذ، وقد أدوا بذلك للاستعمار خدمة جليلة أعانته على بسط نفوذه على مناطق واسعة من البلاد لم يجد فيها مقاومة تذكر ببركة المشائخ وتعاونهم.

وقد سجل التاريخ الجزائري الحديث صفحات سوداء عن الدور الخياني الذي لعبته بعض الطرق الصوفية المنحرفة في توسيع نفوذ الاستعمار وإفشال حركات المقاومة الوطنية التي هبت في وجهه، ومنها موقف الطريقة التيجانية الذي تميز بالمهادنة والاستسلام والميل إلى التعاون مع الغزاة، وإيثار الدعة والهدوء في وقت كانت البلاد كلها تشتعل نارا، والعدو يجرِّع الشعب كؤوس العذاب والهوان.

لقد كان موقف التيجانية من حركة المقاومة الوطنية موقفا فيه كثير من الخزي والتخاذل والخيانة، فهي لم تكتف بمسالمة العدو، وفسح المجال أمامه للتوسع في الصحراء الجزائرية من عين ماضي (مقر الطريقة) مرورا بالأغواط وبسكرة، وتقرت، بل تعدت ذلك إلى الكيد لبعض قادة المقاومة الذين كانوا

---

(١٣٣) هو شيخ الطريقة التيجانية آنذاك.

(١٣٤) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج ٤ – ص ٣٤٤.

يحملون راية الجهاد ضد العدو، كمحمد بن عبد الله شريف ورقلة الذي وجد معارضة شديدة من شيخ التيجانية، ومُنِعَ من دخول سوف وعين ماضي أثناء ثورته ضد الفرنسيين[١٣٥]، وكالأمير عبد القادر الذي اضطر إلى حصار عين ماضي وتأديب أتباع الطريقة التيجانية لوقوفهم في وجهه.

ويذكر الكاتب الفرنسي "رين" أن الحاج علي بن عيسى شيخ التيجانية بتيماسين أعلن سنة ١٨٤٤ عند احتلال بسكرة بقيادة الدوق " دومال" أن ذلك من قضاء الله، ونصح بعدم التعرض للفرنسيين[١٣٦].

وتذكر الوثائق التاريخية أن شيخ الطريقة التيجانية قد توجه رفقة الجاسوس الفرنسي "ليون روش" LEON ROCHES،[١٣٧]إلى تونس والمشرق، بناء على أمر من الجنرال بيجو للحصول على فتوى بعدم جواز محاربة المسلمين للفرنسيين، كجزء من الحرب النفسية التي كانت تقوم بها السلطات الاستعمارية ضد الأمير عبد القادر، والمجاهدين عموما[١٣٨].

وفي هذا الإطار – أيضا – سجلت مجلة الفتح قصة صاحب السجادة الكبرى الذي ألقى خطبة الإخلاص عام ١٩٣١م وهو سيدي محمد الكبير شيخ الطريقة التيجانية بعين ماضي بين يدي الكولونيل سيكوني في زيارة له

---

(١٣٥) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج١ – ص ٣٨٥.

(١٣٦) المرجع نفسه – ج١ – ص ٣٨٤.

(١٣٧) ليون روش (١٨٠٩ – ١٩٠١ م) ولد بمدينة غرونوبل بفرنسا، تعلم اللغة العربية وأصبح ترجمانا في الجيش الفرنسي، التحق بجيش الأمير عبد القادر عام ١٨٣٧ م بحجة إسلامه، وقد نجح في التقرب من الأمير، حتى أصبح كاتب سره، وعندما تمكن من معرفة جميع أسراره، وخططه العسكرية وقدراته المادية ونقاط ضعفه وقوته عاد إلى مقر قيادة الجيش الفرنسي، وكان له دور مهم في إحداث القطيعة بين الأمير والسلطان المغربي مولاي عبد الرحمان، وفي إعداد الخطط الحربية للقضاء على المقاومة. (راجع: مناصرية، يوسف – مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب. المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر – ط١ – ١٩٩٠. ص١٧ إلى ٤٤).

(١٣٨) سعد الله، القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني،المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ط٢. ١٩٨٥ م. ص ١١و: مناصرية، يوسف. مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب. ص٤١ – ٤٢.

للمنطقة وصف فيها فرنسا بأنها أم الوطن الكبرى، وقال «إن من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا فرنسا ماديا وأدبيا وسياسيا، وإن أجدادي قد أحسنوا صنعا في انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا. ففي عام ١٨٣٨ كان أحد أجدادي قد أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا (عبد القادر الجزائري)، وفي عام ١٨٧٠ حمل سيدي أحمد تشكرات الجزائريين، وبرهن على ارتباطه بفرنسا قلبيا، فتزوج من (أوريلي بيكار) وبفضلها تحولت منطقة كوردان من أرض صحراوية إلى قصر منيف رائع»[١٣٩].

ويعد هذا الشيخ التيجاني أول مسلم جزائري يتزوج بأجنبية، وقد أصدرت هذه المرأة الفرنسية كتابا سمته " أميرة الرمال" ملأته بالمثالب والمطاعن على الزاوية التيجانية، وذكرت أن سيدي أحمد تزوجها على يد الكاردينال لافيجري على حسب الطقوس المسيحية[١٤٠].

وعندما تكونت جمعية الطريقة التيجانية أعطت الرئاسة الشرفية لكل من «سمو الوالي العام على الوطن الجزائري، وجناب عمال العمالات الثلاث، وللسادة الحكام بالأقسام الجنوبية الثلاثة»[١٤١]، وكلهم موظفون فرنسيون سامون، معينون من حكومة باريس للإشراف على تسيير شؤون الجزائر. وتعد الطريقة التيجانية نموذجا حيا للطرق الصوفية المنحرفة التي كونت علاقات مصلحية حميمة مع الاستعمار الفرنسي.

ومثلها في ذلك الطريقة العليوية بمستغانم التي كان يجهر شيوخها بأن الحكومة الفرنسية تسوس البلاد سياسة رشيدة، وتحفظ الأمن، وتنشر العدل والنظام، وتبث السلام بين الناس، وهي لا ترضى بالسرقة، ولا بالكذب ولا تقتل النفس التي حرم الله، وهي بمجموع مزاياها هذه تعد قبسا من شعاع أنوار

---

(١٣٩) الخطيب، محب الدين، مجلة الفتح، ع٢٥٧ – مج٦ – ١٣٥٠ هـ. القاهرة.
(١٤٠) المرجع نفسه.
(١٤١) جريدة البصائر – ع ١٤٨ – ٢٢ ذو القعدة ١٣٥٧هـ الموافق ١٣ جانفي ١٩٣٩.

الدين المكين الذي ارتضاه الله لعباده فيجب أن تطمئن لها القلوب، وتخضع لها بالسمع والطاعة[١٤٢].

وقد صور أحد الصحفيين الفرنسيين هذه العلاقة الحميمة بين الطريقة العليوية – ممثلة في شيخها ابن عليوة – والحكومة الفرنسية في مقالة نشرتها المجلة الأهلية الناطقة بالفرنسية في عدد نوفمبر – ديسمبر ١٩٢٧ قال فيها «يجب علينا أن نثني على همة الزعيم الديني الكبير، محب التقدم، وصديق فرنسا، الشيخ سي أحمد بن عليوة المستغانمي، فهذا العالم الروحي العظيم، يبث في أتباعه... حب بلادنا (فرنسا)... فلا غرابة إذا نحن مدحنا كل من كان مواليا لسياستنا، وإن نظرة واحدة في حال الشيخ تدلنا على سعة فكره وفسحة صدره، فهو يدارس قسيسا كاثوليكيا بجريفيل (البيض – وهران) ويبحث معه في الوسائل السهلة الاستعمال لمزج أرواح المسلمين وإراداتهم بأرواح المسيحيين وإراداتهم، وهو معروف لدينا بشديد إعجابه بالمسيح والانجيل... وهو لا يشتغل بالسياسة، وفي إمكانه أن يرقي مستوى الأهالي الأدبي، وأن يجتث منها الأهواء السيئة والاغراءات الشريرة»[١٤٣].

وبادل الاستعمار الفرنسي هذه الطرق الصوفية تأييدا بتأييد، فوقف وراءها مشجعا للأضاليل والبدع والخرافات التي كانت تنشرها بين الناس، وكانت الإرادة الاستعمارية تمول في كثير من الأحيان الولائم الطرقية ومحافلها التي تقيمها لمريديها[١٤٤]. ويذكر مالك بن نبي أن ساسة الاحتلال كانوا يتعمدون إحراق أكوام القمح التي يحصدها المعمر، إذا بلغ أسماعهم أنه منع أدوات الحصاد عن شيخ من شيوخ الزوايا «كانت تلك الفترة – ولا سيما في منطقة وهران – الفترة التي كانت الإدارة الفرنسية تحرق فيها أكوام قمح

---

(١٤٢) بن تونس، عدة، تنبيه القراء، تحقيق يحي برقة، المطبعة العلاوية، مستغانم الجزائر. ١٩٨٣ م. ج١ – ص ١٦٠.

(١٤٣) حماني، أحمد، صراع بين السنة والبدعة، دار البعث، قسنطينة. الجزائر. ط١ ١٩٨٤ م، ج١ – ص ٢٨٦-٢٨٧-٢٩١.

(١٤٤) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص ٣٨٠.

المعمر الفلاني الذي ربما منع أدواته لحصاد سيدي فلان، حتى تحفظ وتغذي ذلك القدر من سرعة التصديق الضرورية لشؤونها الخاصة في رؤوس تابعيها الجزائريين... وكان الشارح يقول: أترى؟ ما أشد سلطان سيدي فلان !... فالمستعمر الذي منعه ماعونه شب الحريق في أكوامه»[١٤٥].

وكان للمعمرين[١٤٦] كذلك ضلع في هذا المجال، فقد كانوا يبنون الأضرحة والقباب على أطراف مزارعهم، وبخاصة في منطقة الغرب الجزائري، ويطلقون عليها أسماء الأولياء الذين يتمتعون بمكانة عظيمة في نفوس الناس، ويشجعون الشعب على ممارسة الطقوس الطرقية عندها، حتى يأمنوا على أموالهم من السرقة ببركة تلك القباب التي تملأ القلوب بالرهبة، وقد تحدث الإبراهيمي عن هذه الظاهرة قائلا «واسأل الحقيقة تجبك عن نفسها بأن الكثير من هذه القباب إنما بناها المعمرون (الأوروباويون) في أطراف مزارعهم الواسعة بعد ما عرفوا افتتان هؤلاء المجانين بالقباب، واحترامهم لها، وتقديسهم للشيخ عبد القادر الجيلاني. فعلوا ذلك لحماية مزارعهم من السرقة والإتلاف. فكل (معمر) يبني قبة أو قبتين من هذا النوع يأمن على مزارعه السرقة، ويستغني عن الحراس ونفقات الحراسة، ثم يترك لهؤلاء العميان – الذين خسروا دينهم ودنياهم – إقامة المواسم عليها في كل سنة، وإنفاق النفقات الطائلة في النذور لها، وتعاهدها بالتبييض والإصلاح»[١٤٧].

---

(١٤٥) بن نبي، مذكرات شاهد القرن الطفل، ص ٣٢٥-٣٢٦.

(١٤٦) المعمرون: هم المستوطنون الأوروبيون الذين وفدوا إلى الجزائر مع الجيش الفرنسي أو الذين قدموا بعد استقرار الأوضاع و إحكام السيطرة على مختلف مناطق البلاد، ويتكونون من جنسيات أوروبية مختلفة، استولوا على الأراضي الزراعية الخصبة، والعقارات، ودواليب التجارة، وبذلك تركزت كل مصادر الثروة في أيديهم، وكانت لهم كلمة نافذة لدى حكومة الاحتلال في باريس في كل مايتعلق بحاضر الجزائر ومستقبلها. كما كانت لهم اليد الطولى في حرمان الجزائريين من كل تطور اجتماعي أو ثقافي أو اقتصادي. وقد بلغ عددهم غداة اندلاع الثورة التحريرية الكبرى عام ١٩٥٤ حوالي ٨٠٠ ألف نسمة (راجع: تركي، د. رابح – التعليم القومي والشخصية الوطنية. ص ٨٨ – ٨٩).

(١٤٧) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص ٣٥٦.

ولم تكن ثورة الإبراهيمي على الطرق الصوفية الموالية للاستعمار محصورة في الجزائر فقط، بل تعدتها إلى المغرب الأقصى حيث كان للطرق الصوفية هناك علاقات حميمة مع الطرق الصوفية في الجزائر جمعهما التعاون مع الاستعمار الفرنسي ضد الحركة الوطنية، ولعل أشهر هؤلاء العملاء عبد الحي الكتاني[١٤٨] الذي حضر مؤتمر الزوايا الذي انعقد في الجزائر سنة ١٩٣٨ م وكان يهدف إلى جمع صفوف الطرق الصوفية وتكوين جبهة موحدة للوقوف في وجه الحركة الاصلاحية والحد من انتشارها.

ودخل الإبراهيمي المعركة ضد عبد الحي الكتاني في حماسة شديدة، وكتب مقالات عديدة تحدث فيها عن هذه الشخصية تارة في سخرية وتهكم وتارة أخرى في ثورة وغضب، وكشف عن سوءاته، وأبان عن خيانته العظيمة لشعبه ودينه، وعن الخدمات الجليلة التي قدمها للاستعمار، كما فضح أسباب زيارته للجزائر عام ١٩٣٨، وقال عنه: «إن هذا الرجل مازال منذ كان الاستعمار في المغرب آلة صماء في يده، يديره كما شاء، ويريده على ما شاء، يحركه للفتنة فيتحرك، ويدعوه إلى تفريق الصفوف فيستجيب، ويندبه إلى التضريب[١٤٩] والتخريب فيجده أطوع من بنانه، ويريد منه أن يكون حمى تنهك، فيكون طاعونا يهلك، وأن يكون له لسانا، فيكون لسانا وأذنا وعينا ويدا ورجلا، ومقراضا للقطع، وفأسا للقلع، ومعولا للصدع، وما شاء الاستعمار إخماد حركة

---

(١٤٨) عبد الحي الكتاني: ولد في فاس بالمغرب الأقصى، تعلم على يد والده ونخبة من علماء فاس، ظهر ميله إلى علم الحديث مبكرا، فرحل في طلبه إلى مصر والحجاز والشام، ولقي بها علماء الحديث فأخذ عنهم، وصار علما فيه، يعرفه معرفة كبرى جرحا وتعديلا، واضطرابا وتعليلا، وصحة وسقما، إلى جانب اطلاعه على علوم عصره المختلفة. له أكثر من ١٢٠ كتابا في مختلف العلوم، وهو – إلى جانب ذلك – من زعماء الطرق الصوفية، والمدافعين عنها في المغرب الأقصى، كان مواليا للاستعمار الفرنسي في مواجهته للحركة الوطنية المغربية التي قاومه أقطابها مقاومة عنيفة، أمثال: أبي شعيب الدكالي، ومحمد بن العربي العلوي (راجع: الكتاني، عبد الحي. فهرس الفهارس والأثبات. ج١. دار الغرب الاسلامي. بيروت. لبنان – ط٢ – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م – ص٧ إلى ٤٤).

(١٤٩) ضرّب بين القوم: أغرى بعضهم ببعض، وأشعل نار الفتنة بينهم.

إلا كانت على يديه البركة، وما شاء التشغيب على العاملين المصلحين والمطالبين بالإصلاح، إلا رماهم منه بالداهية النكراء، والصيلم الصلعاء»[١٥٠].

لهذه الأسباب وغيرها، كالوقوف في وجه الحركة الاصلاحية، والتشويش على العاملين فيها، وتحريض الاستعمار عليها، ثار الإبراهيمي ثورته الشديدة على الطرق الصوفية المنحرفة، وقاومها بكل الوسائل والأساليب من أجل تجديد الدين، وتقديمه للناس في بساطته ويسره، وقد ناله من جراء ذلك عنتا شديدا ولحقته كثير من المتاعب والمضايقات، ووقفت الطرق الصوفية في وجهه تناوئه، وتؤلب عليه إدارة الاحتلال، ومن ذلك ما حصل له بتلمسان عندما اجتمع شيوخ الطرقية، وتوجهوا إلى الوالي الفرنسي، وأكدوا له أن ما يقوم به الإبراهيمي في المدينة من نشر لمبادئ جمعية العلماء، ومن تأسيس لمدارس التعليم العربي الحر، وبناء للمساجد الحرة، وفتح للنوادي الثقافية، يعد بثا للفتنة بين الناس وإخلالا بالنظام العام، ودعوة للفوضى، وأن إخلاصهم وحبهم لفرنسا يحتم عليهم تحذيره من هذا " الوباء " الذي يتهددها، ورجوه في عريضة كتبوها أن يتخذ الاجراءات اللازمة «لاقتلاع كل جراثيم الشقاق من مدينتنا ولإطفاء كافة براثين الدعاية المعادية لفرنسا إلى الأبد... وفي رأينا المتواضع فإن طرد الشيخ الإبراهيمي إلى بلاده سطيف أمر محتم»[١٥١].

كما كانوا يعرِّضون به في صحفهم، وينشرون حوله الأراجيف، ويؤولون مباديء دعوة الإصلاح، لينفروا الناس منها، وقد حذروا من مطالعة جريدة البصائر، ونشرت صحيفة النجاح – وهي إحدى الصحف الناطقة باسم الطرق الصوفية – إعلانا تقول فيه «إن المتعاطي لمطالعة جريدة (قبقب)[١٥٢] يعتبر مشوشا، ومفتنا، ومنافقا، ومعاديا للنفوذ الفرنسي»[١٥٣].

---

(١٥٠) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص ٦١٨.

(١٥١) الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص ١٥٢-١٥٣.

(١٥٢) المقصود بكلمة (قبقب) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي كان يعتمد في مشيته على خيزرانة بسبب المرض الذي أصيب به في رجله.

(١٥٣) صحيفة النجاح – ع٢٢٧٠ – ٨ أفريل ١٩٣٩. الجزائر.

سادسا: خطة الإبراهيمي في الاصلاح وقيمتها في ميزان النقد

والإبراهيمي في ثورته على ظاهرة التصوف المنحرفة عند المذاهب الصوفية القديمة، أو الطرق الصوفية الحديثة يهدف إلى طرح بديل إسلامي أصيل يتمثل في الاستقامة الشرعية، أو التدين السليم المنضبط بضوابط القرآن والسنة باعتبارهما يمثلان الإطار المرجعي الإسلامي الذي يلح الإبراهيمي على ضرورة الرجوع إليه في جميع القضايا التي تعرض للمسلمين في مختلف مجالات الحياة.

وهذا التدين السليم ينتج عن التربية الروحية الإسلامية التي تصوغ شخصية المسلم صياغة متوازنة، تحول بينه وبين الانجراف أمام مغريات الحياة المادية، وتهيئه ليكون عضوا صالحا يتخذ في حياته مواقف مبدئية لا مصلحية، انطلاقا من ضميره الخاضع لرقابة الله، وهذه الطريقة التربوية هي التي عرفتها الحياة الروحية الإسلامية في عهودها الأولى من خلال سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والسلف الصالح، والتي تميزت بالوسطية والتوازن والاعتدال، وهذا البديل يطلق عليه الإبراهيمي إسم (الصلاح).

ففي معرض جداله مع الطرق الصوفية في الجزائر، يوضح لهم أن الاستقامة الشرعية الموافقة للكتاب والسنة تعني في حقيقتها الصلاح بالمفهوم القرآني، وليس التصوف كما يريده زعماء الطرق «ونحن نعلم من طريق التاريخ لا من طريق الشهرة العامة أن بعض أصحاب هذه الأسماء الدائرة في عالم التصوف والطرق كانوا على استقامة شرعية، وعمل بالسنة، ووقوف عند حدود الله. فهم صالحون بالمعنى الشرعي، ولكن الصلاح لم يأتهم من التصوف أو الطرق وإنما هو نتيجة التدين، وفي مثل هؤلاء الصالحين الشرعيين إنما نختلف في الأسماء، فنحن نسميهم صالحي المؤمنين، وهم يسمونهم صوفية وأصحاب طرق»[(١٥٤)].

والصلاح الذي طرحة الإبراهيمي – كبديل للتصوف – مصطلح إسلامي

---

(١٥٤) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – ج١ – ص ١٠٧.

أصيل، وظفه القرآن الكريم بكثرة في آياته، فقد تكررت مادة الصلاح والإصلاح فيه مائة وسبعين مرة، والغالب على الآيات التي تحمل هذا المصطلح أنها تأتي مقرونة بالإيمان الذي هو المدخل الطبيعي للصلاح، ثم يأتي الإصلاح كثمرة للصلاح، لذلك اقترنت آيات الإيمان في مواضع كثيرة بالعمل الصالح مثل قوله عز وجل ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ والتي تكررت على هذا النحو قرابة خمسين مرة(١٥٥).

وهذا الصلاح الذي يدعو إليه الإبراهيمي يقوم على أساس التوازن بين الروح والمادة في حياة الإنسان المسلم، لذلك كان التصوف – في نظره – ظاهرة دخيلة، أدت إلى اختلال الموازنة الي أقامها الإسلام بين الجسم والروح.

ويعد هذا التوازن من السمات البارزة في النظام التربوي الروحي الإسلامي، والذي حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغرسه في أصحابه، وأن ينبههم إليه في مناسبات عديدة بالقول والفعل. فقد كان عليه الصلاة والسلام يأخذهم بالتربية الشاملة المتكاملة التي تجعل منهم رهبانا بالليل، فرسانا بالنهار. وكان يعلمهم أن التقرب إلى الله بالعبادات والنوافل لتزكية النفس وتطهيرها من المعاصي ونوازع السوء لا يعني اعتزال الدنيا والهروب من معترك الحياة.

وكان حريصا على أن يمنع كل محاولة للغلو، والخروج عن إطار هذا الاتزان التربوي الذي رسمه لهم، وهذا ما نلمحه بوضوح في موقفه المنكر للمحاولات التي قام بها بعض المسلمين من ذوي القلوب الرقيقة، والذين غالوا في تناولهم لتعاليم وتوجيهات الإسلام حينما قرروا التفرغ الكامل للعبادة، والزهد في الدنيا والاعتكاف عن ضروب الجهاد كل أيام عمرهم. فحين علم أن رجلا صام النهار ولم يفطر الليل قال له عليه الصلاة والسلام «من أمرك أن تعذب نفسك؟ ثلاث مرات»(١٥٦)، وعند ما بلغه أن أبا الدرداء يصل ليله ونهاره

---

(١٥٥) الشرباصي، أحمد، موسوعة أخلاق القرآن، دار الرائد العربي، بيروت.لبنان ط ١. ١٩٨١ م، ج٤ – ص ٢٠٩.

(١٥٦) الإمام ابن حنبل، مسند أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت. لبنان. ط٢. ١٩٨١ م. ج٥ – ص ٢٨

بالصوم، وينفق أيامه عابدا متبتلا حتى أهمل أمر نفسه وأهله، أنكر عليه هذا السلوك بشدة وقال له: «هلك المتنطعون، إن لبدنك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا»[١٥٧].

وحين طوقت (الحولاء بنت تويت) نفسها بحبل حتى لا يغلبها النوم وهي تصلى، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال: «عليكم من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأحب العمل إليه أدومه وإن قل»[١٥٨].وقد روى أنس بن مالك أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين، فقال «ماهذا الحبل؟ قالوا لزينب، إذا فترت تعلقت به، فقال النبي: لا، حلوه... ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد»[١٥٩]، وكذلك فعل مع الرهط الذين قرروا اعتزال الدنيا والنساء، والتفرغ للعبادة، فأعلمهم عليه الصلاة والسلام أنه أتقاهم وأخشاهم لله، ولكنه يصوم ويفطر وينام ويتزوج النساء، فمن رغب عن سنته فليس من أمته[١٦٠].

لذلك أنكر الابراهيمي على غلاة الصوفية الذين انتحلوا وظيفة التربية تحريفهم للمعنى الحقيقي للحياة الروحية التي أرادها الإسلام لأتباعه. فبدلاً عن أن يوجهوا مريديهم إلى السعي الجاد والسير في مناكب الأرض – في إطار القيم الروحية الإسلامية التي تنظم علاقاتهم بالناس والكون – فيحققوا التوازن المطلوب، عزلوهم عن عالم الشهادة، وزهَّدوهم في الحياة، وفتحوا لهم باب الغيبيات وأكثروا من الجدل فيها، فشتتوا الأذهان، وعطلوا المواهب والطاقات «فبينما يسدون على الناس باب الاهتداء به (أي القرآن) في الأخلاق التي تزكي النفس، والعقائد التي تقوي الإرادات، والعبادات التي تغذي الإيمان، والأحكام التي تحفظ الحقوق، وكل هذا داخل في عالم التكليف، وكله من عالم الشهادة –

---

(١٥٧) رواه مسلم وأبو داوود.

(١٥٨) الأصبهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣ ١٩٨٠ م، ج٢ – ص ٦٥.

(١٥٩) المرجع نفسه – ج٢ – ص ٦٥.

(١٦٠) حديث متفق عليه.

بينما يصدون عن الاهتداء في ذلك بالقرآن نراهم يتعلقون بالجوانب الغيبية منه، وهي التي استأثر الله بعلمها، فيخوضون في الروح والملائكة، والجن وما بعد الموت، ويتوسعون في الحديث عن الجنة والنار، حتى ليكادون يضعون لهما خرائط مجسمة»[١٦١].

كما أشار الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى هذه الظاهرة – أيضا – والناجمة عن جنوح الصوفية إلى التواكل، وانصرافهم عن العلم وتعطيلهم لكثير من طاقات الانسان في الكسب، فقال في تفسير قوله تعالى ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾[١٦٢]، «ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السعي والعمل، وتعاطي الأسباب المشروعة لتحصيل القوت، ورغد العيش، وتوسيع العمران، وتشييد المدنية، بل المقصود الفرار من شرورها وفتنها... وقد ضل قوم فزعموا ذلك طاعة وعبادة، فعطلوا الأسباب وخالفوا الشريعة، وحادوا عما ثبت من السنة...»[١٦٣].

وقد واجه ابن تيمية – المجدد الإسلامي الكبير الذي قضى شطرا من حياته في محاربة البدع والتصدي للفرق الصوفية المنحرفة – الإشكال ذاته في عصره. فحاول أن يعيد الموازين إلى نصابها في نفوس المسلمين عندما أفهمهم: «أن الإسلام فرَّق بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وأنه أراحهم من عالم الغيب عندما وضع أمامهم الحقائق الغيبية الكلية جاهزة، ثم دعاهم في عالم الشهادة إلى تحريك طاقاتهم، وتسخير ما في الوجود من القوى، لأنهم خلقوا من أجل الصراع في عالم المادة، لا الولوج في جزئيات عالم الغيب بأدوات لا يستطيعون أن يتحركوا فيها برؤية واضحة يقينية، زيادة على أن الانشغال بها ضياع للجهد وتمزق في عقيدة الأمة، لا دخل له بالصراع في الأرض لإنشاء الحضارة، والحفاظ على كرامة الإنسان، ومحاربة قوى الطغيان»[١٦٤].

---

(١٦١) آثار الشيخ محمد البشير الابراهيمي – ج٤ – ص ٢٠٨-٢٠٩.

(١٦٢) الذاريات – ٥٠.

(١٦٣) ابن باديس، تفسير ابن باديس، جمع وتعليق: محمد شاهين، ومحمد الصالح رمضان. دار الفكر. بيروت. لبنان. ط٣. ١٩٧٩ م، ص ٦١٠.

(١٦٤) محسن، عبد الحميد، تجديد الفكر الإسلامي، ص ٤٣.

ويسجل الابراهيمي المآثر الحضارية الخالدة التي تركها المسلمون الأوائل شاهدة على عبقريتهم عندما حافظوا على هذا التوازن بين مطالب الجسم والروح، ووقفوا عند الحدود التي خطها لهم الإسلام بين عالم الغيب والشهادة فيقول: «دفع الإسلام أبناءه بتلك الروحانية العنيفة إلى ميادين الحياة بعد أن عرفهم بمعاني الحياة: دفع الأبطال إلى الفتح، وجعل الرفق رديفه، ودفع أولي الهمم إلى الملك، وجعل العدل حليفه، ودفع العلماء إلى التربية، وجعل الإصلاح غايتها، ودفع الأغنياء إلى بناء المآثر، وجعل عزة الأمة نهايتها، فسد كل واحد ثغرة، وأبقى فيها الآثار الخوالد»[١٦٥].

أ – مراتب الصلاح الشرعي

وفي هذا الإطار أيضا، أشار الإبراهيمي إلى أن المسلمين في تمسكهم بالإسلام، وتطبيقهم لتعاليمه، يتفاضلون في التقوى والعمل الصالح. وهذا لا يشبه – في وجه من الوجوه – ما يحدث في الطرق الصوفية التي وضعت لنفسها مراحل للرقي الروحي، ووزعت مراتب الوصول، حيث يبدأ الإنسان الذي يلج عالم التصوف بمرتبة المريد، ثم يرتقي إلى مرتبة السالك، ثم يدخل مقام العبودية، وبعده مقام العشق، ثم مقام الوجد والهيام، وتنتهي هذه المراحل بالوصول إلى مقام الحقيقة الذي تتوارد فيه على قلب الصوفي النفحات الربانية، والبركات الإلهية فلا يرى أمامه إلا الله، وتمحى آثار الموجودات من أمام عينيه إلا وجود الله[١٦٦].

أما مراتب الصلاح الشرعي الثابتة في القرآن والسنة – عند الابراهيمي – فهي ستة: النبوة – والصديقية – والصحبة – والاتباع، ثم التقوى التي يتفاضل بها المؤمنون، ثم الولاية التي هي أثر التقوى[١٦٧]. وهذه المراتب هي التي وجد لها أثرا ثابتا في القاموس الديني الذي يستند في مصطلحاته إلى ما

---

(١٦٥) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص ١٣٦.
(١٦٦) طعيمة، صابر، دراسات في الفرق، ص ١١٥-١١٧.
(١٦٧) آثار الشيخ محمد البشير الابراهيمي – ج١ – ص ١٠٧-١٠٨.

جاء في الكتاب الكريم، وما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما عداه فهو بدعة من بدع الصوفية.

١ – فالنبوة هي أعلى مراتب الكمال الروحي الإنساني، لذلك كان الأنبياء هم الصفوة المختارة من طرف الله عز وجل لتبليغ الرسالات.

٢ – والصديقية هي مرتبة الأبرار من أفاضل أصحاب الأنبياء لشدة تصديقهم لهم.

٣ – والصحبة مرتبة دون الصديقية، اختص بها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين عاشروه، ولازموه في حله وترحاله، وعاشوا في ظلال الوحي، وأخذوا من علمه وتقواه، وهم «الذين حازوا قصبات السباق، واستولوا على الأمد، فلا طمع لأحد من الأمة بعدهم في اللحاق... وكانت أفهامهم فوق أفهام جميع الأمة، وعلمهم بمقاصد نبيهم صلى الله عليه وسلم، وقواعد دينه وشرعه أتم من علم كل من جاء بعدهم»[١٦٨].

٤ – والاتِّباع هي صفة المؤمنين الذين صحبوا صحابة رسول الله وأخذوا عنهم علم النبوة وأخلاقها، وهم التابعون «الذين غمرهم ضياء النبوة باتباعهم لأصحاب رسول الله، والاهتداء بهديهم، والنيل من إشراقاتهم»[١٦٩].

٥ – أما التقوى فهي فضيلة قرآنية تمثل أرقى مراتب الالتزام بأوامر الكتاب والسنة واجتناب نواهيهما، وهي ميزان التفاضل بين المؤمنين، مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام «لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح».

٦ – والولاية ثمرة من ثمرات التقوى، يخص بها الله سبحانه وتعالى عباده الصالحين الذين أخلصوا النية في العبادة، وقطعوا أشواطا بعيدة في التقرب

---

(١٦٨) ابن القيم، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق د. محمد جميل غازي، القاهرة. مصر. ١٩٧٧ م. ص ١٧٨.

(١٦٩) البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة، لا مذهب إسلامي، دار الفكر، دمشق. سوريا. دت، ص ١٠.

إلى الله بالنوافل والأذكار المشروعة، والمسارعة في الخيرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة دين الله، والدعوة إليه بالحسنى، وأداء الحقوق، ومراعاة جانب الله في كل ما يأخذون ويدعون، وهي أعلى مرتبة من مراتب التقوى. وقد خص الله بالولاية طبقة من خلقه سماهم أولياء، وأثنى عليهم، وبشرهم، فقال تعالى في سورة يونس ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[١٧٠].

وتبدو مظاهر الولاية فيما يخص به الله سبحانه وتعالى الولي من عون وحفظ، ورعاية، وما يهيئه له من تأييد ونصر بالأسباب العادية «ويعينه بما هو خارج عن الأسباب، ويلطف به فيما يلم به»[١٧١]، والولاية أمر باطني غيبي لا يعلمه إلا الله، لذلك لا يجوز لأحد أن يزكي أحدا، ويجزم له بولاية الله،، يقول القرطبي في تفسيره: «قال علماؤنا رحمة الله عليهم: ومن أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات، فليس ذلك دالا على ولايته، خلافا لبعض الصوفية والرافضة... ودليلنا أن العلم بأن الواحد منا ولي لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنا، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكننا أن نقطع على أنه ولي لله تعالى»[١٧٢].

وهذا ينقض دعوى زعماء الطرق الصوفية الذين كانوا يتساهلون في ادعاء ولاية الله، ويجزمون صحة دخولهم للجنة، بل ويبشرون أتباعهم بها، وقد بلغ من جرأة التيجاني أن أعلن أن كل من رآه أو رآى من رآه دخل الجنة إلى أربعة أجيال. وقد حارب العلماء المصلحون هذه الظاهرة، وصححوا المفاهيم المتعلقة بالولاية في أذهان العامة، ومنها: قول الشيخ عبد الحميد بن باديس: «أفضل المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهم الأولياء والصالحون، فحظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حظه من تقوى الله»[١٧٣].

---

(١٧٠) يونس – ٦٢-٦٤.

(١٧١) الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، ص ١١١.

(١٧٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١ – ص ٢٩٧.

(١٧٣) جريدة البصائر " دعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأصولها " – س ٢ – ع ٧١ – ربيع الثاني ١٣٥٦هـ – ١٨جوان ١٩٣٨ م.

وقد تحققت هذه المراتب الستة التي ذكرها الإبراهيمي في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحياة الجيل الأول من الصحابة وتابعيهم. وعلى هذا الأساس، فهو يرى أن نظام التربية الروحية الإسلامي في جانبه النظري ينطلق من الكتاب والسنة وفهم السلف الصالح، ويقوم على التوازن بين أشواق الروح ومطالب الجسم، ويهدف إلى إيجاد الإنسان الصالح، لذلك رفض ظاهرة التصوف في الكيان الإسلامي، لأنها تركز على جانب الزهد في الدنيا تركيزا مبالغا فيه، وتنفر الناس من الإقبال على ما أحل الله لهم من زينة الحياة ومباهجها ومتعها في حدود التوازن والاعتدال المرسوم في الشريعة، مما أخل بطرفي المعادلة التي أقامها الإسلام بين الجسم والروح، وهي التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يتفاعل تفاعلا إيجابيا مع الكون والناس، فيقوم بواجب الخلافة عن الله على أتم وجه.

وتحدث الإبراهيمي عن دور القرآن في إخراج هذا الجيل القرآني المتميز في صدر الإسلام، في محاولة منه للتأكيد على ضرورة الرجوع إلى الإطار المرجعي لتحديد الانطلاقة الحضارية التي تعيد لنا المجد التليد، وهي إشارة أيضا إلى أن كل ما تعتد به الطرق الصوفية من أوراد وأذكار ومقامات للوصول لا أثر له في الحياة الروحية الإسلامية النقية، المعتدلة «ما كان الصدر الأول من سلفنا صالحا بالجبلة والطبع، فالرعيل الأول منهم كانوا في جاهلية جهلاء كبقية العرب، وإنما أصلحهم القرآن لما استمسكوا بعروته، واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكَّموه في أنفسهم، وجعلوا منه ميزانا لأهوائهم وميولهم، وأقاموا شعائره المزكية، وشرائعه العادلة في أنفسهم، وفيمن يليهم، كما أمر الله أن تقام، فبذلك أصبحوا صالحين مصلحين، سادة في غير جبرية، قادة في غير عنف»[١٧٤].

وهذه الروحانية الإسلامية المعتدلة هي التي دفعت الجيل الأول إلى مشارق الأرض ومغاربها، ينشرون في أطرافها الخير والعدل والإحسان «كان

(١٧٤) آثار محمد البشير الإبراهيمي – ج ٤ – ص ٢٠٦.

الإسلام عزيز الجانب، منيع الحمى، يوم كان يدافع عن نفسه بروحانيته القوية، وحقائقه الواضحة، وعقائده الصافية، وأحكامه السمحة، وآدابه القويمة، وحكمه المتحكمة في العقول، وكان يدافع عنه جند من أبنائه، عرضهم على ميزانه فرجحوا، واستعرضهم فنجحوا، وامتحن قلوبهم للتقوى فتكشفوا عن الطيب والطهر، وتلاقت العقائد الصريحة والقواعد الصحيحة على إنارة غسق الأرض بإشراق السماء فظلل الإسلام الكون بعدله وسماحته، وكان له في المشارق والمغارب مستقر ومستودع»[١٧٥].

وضعف هذه الروحانية في نفوس المسلمين هو الذي أضعف سلطانهم على الأرض، ومكن لأعدائهم منهم، لأن علاقتهم الصحيحة به اختلت في أذهانهم، ولم يعودوا قادرين على التجاوب معه على النحو الذي فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعوهم، والذين استطاعوا بفهمهم القويم وانضباطهم بقواعده أن يحدثوا الإخصاب المطلوب بين الواقع المعيش وأحكام الشريعة، فأخرجوا للإنسانية حضارة شامخة، «فلما ضعف سلطانه على نفوس أبنائه ضعف سلطانهم على الأرض فاختل فتلاشى، ذلك يوم أصبح قرآنه أغاني على الألسنة، لا أشفية للصدور، وأحاديثه أحاديث للتلهية والتغرير لا معادن للأحكام والأخلاق يوم قضي على عقائده بالخرافات، ونسخت أحكامه بالعادات، وبدلت آدابه بالتقاليد»[١٧٦].

وخلاصة القول: إن الابراهيمي قد أعلن ثورته العارمة على التصوف، ورفضه رفضا قاطعا بسبب صدوره عن فلسفات أجنبية وانحرافه الخطير عن منهج القرآن والسنة وسيرة السلف الصالح، وممارسته للابتداع والانحرافات الأخلاقية، وسقوطه في متاهات الكفر والإلحاد.

وحتى ظاهرة التصوف التي ظل أصحابها ملتزمين بأحكام القرآن والسنة، ولم ينجرفوا مع تيار الفساد لايستسيغها الإبراهيمي، ولا يعترف بها كظاهرة

---

(١٧٥) الإبراهيمي، عيون البصائر، ص ١٣٦.
(١٧٦) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

صحية في الحياة الإسلامية، لأنه يؤمن إيمانا جازما أنه لا يمكن أن يوجد بديلا للحياة الروحية السليمة المتزنة، المعتدلة التي عاشها النبي الكريم وأصحابه، والتابعون من بعدهم، وكانت كل جهوده في هذا المجال – منصبة على محاربة الطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر، باعتبارها امتدادا للمذاهب الصوفية القديمة في كثير من الممارسات الخاطئة، والانحرافات العقدية، والأفكار الضالة، ثم بسبب تفريقها للشعب الجزائري واستغلالها البشع له، وأخيرا سقوطها في أحضان الاستعمار الفرنسي الذي حولها إلى أدوات عميلة تخدم أهدافه ومطامعه.

وطرح الإبراهيمي – في مقابل ذلك كله – البديل الإسلامي الذي يتمثل في الصلاح الشرعي القائم على الالتزام بالكتاب والسنة، والاقتداء بسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين الذين مثلوا هذه الصلاح في أرقى صوره، فكانوا خير الأمم كما وصفهم الله سبحانه وتعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١٧٧).

والحق أن موقف الإبراهيمي من الطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر والذي يكاد يكون صورة صادقة لموقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نلمس فيه بعض القسوة والشدة والمبالغة، وهي تكاد تكون ميزة من ميزات أسلوبه في الكتابة، لكننا إذا قيمنا هذا الموقف في إطاره التاريخي وسياقه الحضاري سنجد أن هذه المبالغة والقسوة كانت ضرورية جدا، لأن تأثير الصوفية في المجتمع الجزائري – إبان هذه المرحلة – كان شديدا ولا تمكن مواجهته إلا بمثل هذا النوع من الأسلوب.

---

(١٧٧) آل عمران – ١١٠.

قائمة المصادر و المراجع

١) القرآن الكريم

أولا: الكتب

(أ)

- الابراهيمي، محمد البشير

٢) آثارالشيخ محمد الابراهيمي، ج١، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، ط١، ١٩٧٨م.

٣) آثار محمد البشير الابراهيمي، ج٤، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥م.

٤) عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، د. ت

٥) في قلب المعركة، جمع وتصدير: د. أبو القاسم سعد الله، دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر، ط١، جانفي، ١٩٩٤.

- أرسلان، شكيب. لوثروب، ستودارد

٦) حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، لبنان،ط٣، ١٩٧١.

- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله

٧) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٣ ط٣، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م.

- الإفريقي، عبد الرحمن بن يوسف

٨) الأنوار الرحمانية لهداية الفرقة التيجانية، رئاسة ادارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والارشاد، السعودية، د.ت.

(ب)

- ابن باديس، عبد الحميد

٩) آثار الامام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط١، ١٩٩١ م.

١٠) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وتعليق: د. توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٧٩ م.

- برادة، علي حرازم بن العربي علي برادة

١١) جواهر المعاني، وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٨ م.

- بوالصفصاف، عبد الكريم

١٢) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. دار البعث، قسنطينة. الجزائر. ط١. ١٩٨١ م.

- البوطي، د. محمد سعيد رمضان

١٣) السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر، دمشق سوريا، د.ت.

(ت)

- تركي، رابح

١٤) التعليم القومي و الشخصية الوطنية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ١٩٧٥ م.

- بن تونس، عدة

١٥) تنبيه القراء إلى كفاح مجلة المرشد الغراء، تحقيق: يحي برقة، المطبعة العلاوية، مستغانم، الجزائر، ١٩٨٣ م.

(ج)

- الجزائري، محمد بن عبد الكريم

١٦) التصوف في ميزان الإسلام. دار هومة. الجزائر. ط١. ١٩٩٧ م

- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

١٧) سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، ط١، ١٩٣٥ م.

- الجندي، أنور

١٨) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٦٥ م.

- الجوزية، ابن قيم

١٩) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق: د. محمد جميل غازي،القاهرة مصر، ١٩٧٧ م.

- الجيلالي، عبد الرحمان

٢٠) تاريخ الجزائر العام،دار الثقافة، بيروت،لبنان، ط٦، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م

(ح)

- الحفناوي، أبو القاسم محمد

٢١) تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢،١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م.

- حماني، أحمد

٢٢) صراع بين السنة والبدعة،دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط١، ١٩٨٤ م

- ابن حنبل، الإمام أحمد

٢٣) المسند، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٨ هـ – ١٩٨١ م.

(خ)

- **الخطيب، د. أحمد**

٢٤) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،١٩٨٥ م

(د)

- **الدباغ**

٢٥) الإبريز، طبعة ١٢٩٢ هـ

- **دبوز، محمد علي**

٢٦) نهضة الجزائر الحديثة، المطبعة التعاونية، غرداية. الجزائر. ط١. ١٩٦٥ م.

(ز)

- **الزين، سميح عاطف**

٢٧) الصوفية في نظر الإسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د. ت.

(س)

- **سعد الله، د. أبو القاسم**

٢٨) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ١٩٨٥م

٢٩) تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ – ١٩٨١ م.

٣٠) الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١،١٩٩٢ م.

٣١) رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ١٩٩٠ م.

٣٢) القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط٢،١٩٨٥ م.

(ش)

- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى

٣٣) الاعتصام، مكتبة الرياض الحديثة،الرياض،المملكة العربية السعودية، د.ت

- الشرباصي، د. أحمد

٣٤) موسوعة أخلاق القرآن،دار الرائد العربي، بيروت،لبنان، ط١، ١٩٨١ م

- الشرجي، عبد الغني غالب

٣٥) الإمام الشوكاني حياته وفكره،مؤسسة الرسالة، بيروت،لبنان،ط١،١٩٨٨م

(ط)

- طعيمة، د. صابر

٣٦) دراسات في الفرق، مكتبة المعارف،الرياض،المملكة العربية السعودية، ط٢،١٩٨٣ م.

(ع)

- عبد الحكيم، عبد الغني قاسم

٣٧) المذاهب الصوفية ومدارسها. مكتبة مدبولي. القاهرة. مصر. ١٩٨٩م.

- عبد الحميد، د. محسن

٣٨) تجديد الفكر الإسلامي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، مصر، د.ت.

(ف)

- فيلالي، مختار الطاهر

٣٩) نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني. دار الفن الغرافيكي للطباعة والنشر. باتنة. الجزائر. ط١. د.ت.

(ق)

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الإنصاري

٤٠) الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت.

- **قريب الله، د. حسن الشيخ الفاتح**

٤١) في الزهد والتصوف. دار الجيل. بيروت. لبنان. ط١. ١٩٩١ م.

- **القشيري، عبد الكريم بن هوازن**

٤٢) الرسالة القشيرية، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر، د.ت.

(ك)

- **الكتاني، عبد الحي**

٤٣) فهرس الفهارس والأثبات. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. ط٢. ١٩٨٢ م.

(م)

- **مجموعة من المستشرقين**

٤٤) دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

- **مخلوف، محمد بن محمد**

٤٥) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت

- **المدني، أحمد توفيق**

٤٦) حياة كفاح، القسم الثاني (١٩٢٥ – ١٩٥٤ م)، الشركة الوطنية للنشر،والتوزيع، الجزائر، ط٢، ١٩٨٨ م.

٤٧) كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤ م.

- **المراكشي، محمد صالح**

٤٨) تفكير محمد رشيد رضا، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٥ م.

- **مرتاض، عبد الملك**

٤٩) فنون النثر الأدبي في الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣ م

- **مناصرية، يوسف**

٥٠) مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري. ط١. ١٩٩٠ م.

- **المهدلي، د. السيد محمد عقيل بن علي**

٥١) دراسة في الطرق الصوفية. دار الحديث.القاهرة. مصر. ط١. ١٩٩٣ م.

- **الميلي، مبارك بن محمد**

٥٢) رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط٣، ١٩٨٢ م.

(ن)

- **بن نبي، مالك**

٥٣) مذكرات شاهد القرن الطفل، ترجمة: مروان القنواتي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٦٩ م.

- **نويهض، عادل**

٥٤) معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط٣،١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م.

(و)

- **الوكيل، عبد الرحمان**

٥٥) هذه هي الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٨٤ م.

ثانيا: الجرائد والدوريات

٥٦) مجلة الأصالة، الجزائر،ع٨، س٢. ١٩٧٢ م.

٥٧) جريدة البصائر، ع ١٣،١٤٨ جانفي ١٩٣٩، وع٧١، ١٨ جوان ١٩٣٨ م، الجزائر.

٥٨) مجلة الثقافة، ع٦٣،ماي – جوان ١٩٨١ م،وع ٨٧،ماي – جوان ١٩٨٥م، الجزائر.

٥٩) مجلة العربي، ع٢٥٠، ١٩٧٩ م. الكويت.

٦٠) مجلة الفتح، محب الدين الخطيب، ع٢٥٧، مج ٦، ١٣٥٠ هـ، القاهرة

٦١) جريدة المنتقد، ع١٣، ٢٤ سبتمبر ١٩٢٥ م، قسنطينة، الجزائر.

٦٢) جريدة النجاح، ع٢٢٧٠، ٨ أفريل ١٩٣٩ م، الجزائر.